

عقيدتنا

عقيدة القرآن والسنة

ⓒ دار الكتاب والسنة، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هراس، محمد خليل

عقيدتنا... عقيدة القرآن والسنة ./ محمد خليل هراس؛ عبدالكريم عبدالمجيد الدرويش.- الرياض، ١٤٢٧هـ

٣٣٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٧ - ٦ - ٩٤٦٩ - ٩٩٦٠

١- العقيدة الإسلامية أ- الدرويش، عبدالكريم عبدالمجيد (مخرج) ب- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٢٧/٢٨١٣

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٢٨١٣

ردمك: ٧ - ٦ - ٩٤٦٩ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

رجب ١٤٢٧هـ

كِتابُ اللّهِ عَزَّ وَجلَّ قولي ... وَما صحَّتْ بِهِ الآثارُ دِيني

فدَعْ مَا صَدَّ عن هذي وَخُذْها ... تَكُن مِنها عَلىٰ عَيْنِ اليَقينِ

[نَفح الطِّيب لِلمقري (١٢٧/٢)]

شركة دار الكتاب والسنة للنشر الدولي

DAR AL-KITAB WA AL-SUNNAT

INTERNATIONAL PUBLISHING COMPANY

G.P.O Box No. 1452 Lahore: 54000 Pakistan

P.O. Box No. 330110 Riyadh: 11373 K.S.A Tel. +966555281537

BIRMINGHAM (UNITED KINGDOM)

website: darkitab.com E-mail: info@darkitab.com or sales@darkitab.com



عَقيدَتُنا

عَقيدة القُرآن والسُّنة

د. مُحَمَّد خَليل هَرّاس

رئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا بجامعة أم القرى سابقاً

جمعها واعتنى بإخراجها

عبدُ الكريم بن عبد المجيد الدرويش

تقديم

الشيخ فتحي أمين عثمان



دار الكتاب والسُّنة للنشر الدولي

تعتز بخدمة الكتاب والسُّنة

الناشـــر

دار الكتاب والسنة للنشر الدولي

للطباعة والنشر والتحقيق والتأليف والترجمة

لصاحبها/ أرشد ذليك أيغل

كلمة الناشر

[الحمد لله الذي جعل في كل فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويُبَصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الغاوين من الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وضلال المنحرفين الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون له، مجمعون على مفارقته، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جُهّال الناس بما يُشَبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين].

وقد نص غير واحد من أهل العلم على أن تأويل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. هو موت العلماء المصلحين فهم أمان الله لأرضه وخلقه.

وفي الحديث المتفق عليه: عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فَسُئِلوا فأفْتَوْا بغير علم فضلوا وأضلوا**».

ومن هنا كان حرص (**دار الكتاب والسنة للنشر الدولي**) على نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، وأن يكون ذلك حقيقة ومنهاجًا هو منهاج السلف الصالح وعقيدة الفرقة الناجية التي لا تزال طائفة منها على الحق قائمة منصورة إلى يوم القيامة، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وهذه العقيدة ليست شعاراً يلاك بالألسن أو يُتّجر به، وليست لحنا يعزفه المتأكلون وأصحاب الأهواء ليرقص عليه العلمانيون، وليست كفا تربت على أهواء المفتونين أو السكارى، أو ترضى عنها اليهود أو النصارى.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وفي هذا السياق يسرنا أن يأتي هذا الإصدار الجديد للعلامة: **محمد خليل هراس** -رحمه الله- والذي بعنوان:

عقيدتنا .. عقيدة القرآن والسنة

وهذا الكتاب تكمن أهميته من حيث موضوعه في بيان عقيدة السلف، والتي هي عقيدة القرآن والسنة والرد على المخالفين لها.

ومن حيث إنه للعلامة/ **محمد خليل هراس** -رحمه الله-، وهو من هو في قائمة علماء الدعوة الكبار المتخصصين في فهم عقيدة السلف في هذا الزمان.

وهذه المنزلة لم تنشأ من فراغ، وإنما كانت نتيجة جهد واطلاع واختصاص في فهم تراث السلف، وخاصة ما جاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله.

ويكفي أن نعلم أن رسالته العالمية (الدكتوراه) كانت بعنوان: **(ابن تيمية السلفي ورده على مذاهب المتكلمين)**.

ولذلك لم يكن غريبًا ثناء كبار العلماء على المؤلف من أمثال العلامة/ **عبدالرازق عفيفي** -رحمه الله- وغيره من كبار العلماء؛ ومن ثَمَّ استدعاه **الملك فيصل بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود** -رحمهم الله- للتدريس في بلاد الحرمين

المملكة العربية السعودية، وعُيّن رئيسًا لقسم العقيدة بالدراسات العليا **بجامعة أم القرى بمكة المكرمة**.

وقد حرصنا على أن يخرج الكتاب في حلة أنيقة مخرجة الأحاديث، موثقة النقول، وأن يلحق به فهرس لأطراف الآيات القرآنية مرتب على السور، وفهرس لأطراف الأحاديث والآثار مرتب على الحروف الهجائية ليعم الانتفاع به.

نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله ذخراً لكل من أسهم في إخراجه.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

أبو سلطان أرشد بيك مغل

الرياض ١٤٢٧/٧/٧هـ

تـقـديم فضيلة الشيخ فتحي أمين عثمان

الوكيل العام لجماعة أنصار السُّنة المحمدية بالقاهرة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، وأشـهد أن محمدًا عبده الكـريم ورسوله الرءوف بالمـؤمنين الرحيم، إمام المهتدين وخاتـم المرسلين والمبعوث رحمـة للعالمين، وعلىٰ آله أجمعين صـلاة وسـلاما دائمين متلازمين إلىٰ يوم الدين.

أمـا بعـد، فـإن من يـتضـلع مـن كـتب شـيـخ الإسلام ابن تـيمية وتلميذه ابـن القيم - رحمهمـا الله - يصبح جـديرًا أن يفهـم عقيدة أهل السـنة على وجهها، ويعـرف السلفية على مـعناها الصـحيح. ولما كـان الأستـاذ الدكـتـور العلامة محمـد خليل هراس - رحـمه الله - ممن قام بدراسات عليـا عن منهج شيخ الإسلام ابن تيمية فـي رسالة للدكـتوراه والتى بعنوان: (ابن تيمية السلفي ورده على مذاهب المتكلمين) .

وقـرأ كـتب الشيخ وتضلع منها دراسة وفهـمًا، فقد صار بذلك علمًا من علمـاء السلفـية في مصـر، ورائدًا من روادهـا، له منهج رصين، وفهم عميق، وتبحر في المعاني والدلالات، خبيرا بالمسالك والمتاهات، بحرًا في تحرير القضايا وفض المنازعات.

ومـن هنا جاء الاهتمـام بإنتاجه العلمي الغزير، وجهـوده الرائعة في تقرير عقيدة أهل السُّنة والجماعة، وخير مثال عن ذلك: حصول الباحث موسىٰ السلمي علىٰ درجة الماجسـتير في:

(الشيخ خليـل هـراس وجـهوده الـدعويـة) من جامعـة أم القرىٰ، جـلىٰ فـي بحثه الجوانب العلميـة في منـهج الشـيخ وفهمه وتـأصيله لمسائل الاعتقاد.

وفي الحديث المتفق عليه: عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فَسُئِلوا فأفْتَوْا بغير علم فضلوا وأضلوا**».

ومن هنا كان حرص (**دار الكتاب والسنة للنشر الدولي**) على نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، وأن يكون ذلك حقيقة ومنهاجًا هو منهاج السلف الصالح وعقيدة الفرقة الناجية التي لا تزال طائفة منها على الحق قائمة منصورة إلى يوم القيامة، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وهذه العقيدة ليست شعاراً يلاك بالألسن أو يُتّجر به، وليست لحنا يعزفه المتأكلون وأصحاب الأهواء ليرقص عليه العلمانيون، وليست كفا تربت على أهواء المفتونين أو السكارى، أو ترضى عنها اليهود أو النصارى.

﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وفي هذا السياق يسرنا أن يأتي هذا الإصدار الجديد للعلامة: **محمد خليل هراس** -رحمه الله- والذي بعنوان:

عقيدتنا .. عقيدة القرآن والسنة

وهذا الكتاب تكمن أهميته من حيث موضوعه في بيان عقيدة السلف، والتي هي عقيدة القرآن والسنة والرد على المخالفين لها.

ومن حيث إنه للعلامة/ **محمد خليل هراس** -رحمه الله-، وهو من هو في قائمة علماء الدعوة الكبار المتخصصين في فهم عقيدة السلف في هذا الزمان.

وهذه المنزلة لم تنشأ من فراغ، وإنما كانت نتيجة جهد واطلاع واختصاص في فهم تراث السلف، وخاصة ما جاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله.

ويكفي أن نعلم أن رسالته العالمية (الدكتوراه) كانت بعنوان: **(ابن تيمية السلفي ورده على مذاهب المتكلمين)**.

ولذلك لم يكن غريبًا ثناء كبار العلماء على المؤلف من أمثال العلامة/ **عبدالرازق عفيفي** -رحمه الله- وغيره من كبار العلماء؛ ومن ثَمَّ استدعاه **الملك فيصل بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود** -رحمهم الله- للتدريس في بلاد الحرمين

المملكة العربية السعودية، وعُيّن رئيسًا لقسم العقيدة بالدراسات العليا **بجامعة أم القرى بمكة المكرمة**.

وقد حرصنا على أن يخرج الكتاب في حلة أنيقة مخرجة الأحاديث، موثقة النقول، وأن يلحق به فهرس لأطراف الآيات القرآنية مرتب على السور، وفهرس لأطراف الأحاديث والآثار مرتب على الحروف الهجائية ليعم الانتفاع به.

نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله ذخراً لكل من أسهم في إخراجه.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

أبو سلطان أرشد بيك مغل

الرياض ١٤٢٧/٧/٧هـ

تـقـديم فضيلة الشيخ فتحي أمين عثمان

الوكيل العام لجماعة أنصار السُّنة المحمدية بالقاهرة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، وأشـهد أن محمدًا عبده الكـريم ورسوله الرءوف بالمـؤمنين الرحيم، إمام المهتدين وخاتـم المرسلين والمبعوث رحمـة للعالمين، وعلىٰ آله أجمعين صـلاة وسـلاما دائمين متلازمين إلىٰ يوم الدين.

أمـا بعـد، فـإن من يـتضـلع مـن كـتب شـيـخ الإسلام ابن تـيمية وتلميذه ابـن القيم - رحمهمـا الله - يصبح جـديرًا أن يفهـم عقيدة أهل السـنة على وجهها، ويعـرف السلفية على مـعناها الصـحيح. ولما كان الأستـاذ الدكتـور العلامة محمـد خليل هراس ـ رحـمه الله ـ ممن قام بدراسات عليـا عن منهج شيخ الإسلام ابن تيمية فـي رسالة للدكتوراه والتى بعنوان: (ابن تيمية السلفي ورده على مذاهب المتكلمين) .

وقـرأ كتب الشيخ وتضلع منها دراسة وفهـمًا، فقد صار بذلك علمًا من علمـاء السلفـية في مصـر، ورائدًا من روادهـا، له منهج رصين، وفهم عميق، وتبحر في المعاني والدلالات، خبيرا بالمسالك والمتاهات، بحرًا في تحرير القضايا وفض المنازعات.

ومـن هنا جاء الاهتمـام بإنتاجه الـعلمي الغزير، وجهـوده الرائعة في تقرير عقيدة أهل السُّنة والجماعة، وخير مثال عن ذلك: حصول الباحث موسىٰ السلمي علىٰ درجة الماجسـتير في:

(الشيخ خليل هراس وجهوده الدعويـة) من جامعـة أم القرىٰ، جلىٰ فـي بحثه الجوانب الـعلميـة في منـهج الشـيخ وفهمه وتـأصيله لمسائل الاعتقاد.

ولقد عهدنا الشيخ العلامة الهراس كاتبًا ومتحدثًا عن عقيدة القرآن والسُّنة فيما يعجز القلم عن حصره، وقد يسّر الله فى زماننا هذا من قام بجمع مقالات وفتاوىٰ ومحاضرات الشيخ العلامة الهراس رحمه الله. وكان مما جمع مجموعة من المقالات كتبها الشيخ في مجلة الهدي النبوي علىٰ امتداد خمسة أعوام اشتملت علىٰ العقيدة الصحيحة التي يجب علىٰ كل مسلم أن يعتقدها، من: توحيد الربوبية، توحيد الإلهية، توحيد الأسماء والصفات. ثم عقب بعدها الشيخ بشرح أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العلىٰ، فأفاد وأجاد.

ولا أحسب أحدًا كان يخاطب الناس فيفهم عنه الخاصة والعامة في أمور تحسبها صعبة الإدراك علىٰ غير أهل التخصص مثل الشيخ العلامة خليل هراس فقد كان له لسان في الحق مبين فصيح، وتلك موهبة وهبه الله إياها، وهو عندما يناقش أو يحاور في أمر الاعتقاد يظهر علمًا جمًا غزيرًا وفهمًا مستقيمًا.

كما لا يفوتني أن أنوه بجهد أخي وابن أخي/ عبد الكريم بن عبدالمجيد الدرويش الذي جمع فتاوىٰ الشيخ العلامة الهراس - من قبل - وتم طبعها في دار طيبة للنشر والتوزيع، فجزاه الله خيرًا، كما ندعو الله أن يجعله عملاً متقبلاً.

وفي الختام: إلىٰ الذين يؤرقهم الشوق إلىٰ معرفة الحق، إلىٰ الذين يؤرقهم الخوف من معرفة الحق، إلىٰ هؤلاء وهؤلاء نسوق هذا الكتاب.

والله من وراء القصد وبه الهداية ومنه التوفيق.

وكتبه فتحي أمين عثمان

الوكيل العام لجماعة أنصار السُّنة المحمدية بالقاهرة

مقدمة معد الكتاب

الحمد لله الواحد الأحد الفرد المعبود الصمد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة الله لنفسه، وشهادة الملائكة له، وشهادة أولي العلم ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [آل عمران: ١٨]. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله وخيرته من خلقه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما بعد:

فإنني أقدم - للقارئ الكريم - مجموعة من واحد وخمسين مقالاً في العقيدة الإسلامية الصحيحة المستمدة من صريح القرآن الكريم وصحيح السُّنة النبوية، كما كتبها الأستاذ الدكتور العلامة / محمد خليل هراس - رحمه الله تعالى - ونشرتها مجلة الهدي النبوي التي كانت تصدرها - شهريًا - جماعة أنصار السُّنة المحمدية، منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود ونصف، أقدم هذه المقالات مجموعة في مصنف واحد.

وموضوع هذه المقالات هو: **(عقيدة القرآن والسنة)**، التي يجب أن يعلمها كل مسلم وهي التي لا يجوز فيها الترخص أو العذر بالجهل، فلقد قال الله لنبيه وأعْبَدِ خلقه محمد ﷺ كما قال لأنبيائه - صلوات الله وسلامه عليهم - من قبل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝﴾ [الزمر: ٦٤، ٦٥]،

وأمره بأن يعلم معنىٰ لا إله إلا الله، فقال له: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩] ، لذلك فقد مكث الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا - في بدء الدعوة - يدعو الناس إلىٰ التوحيد الذي هو العبادة الأولىٰ في حياة المسلم، وهو الذي يدور في فلكه سائر عبادته وعمله.

فلقد كتبها الأستاذ الدكتور العلامة / محمد خليل هراس - رحمه الله تعالىٰ - بأسلوبه السهل المتميز مما يعد مدخلاً طيبًا لدراسة العقيدة الصحيحة وتفهمها والتعمق فيها وتوصيلها للناس، وفضيلته ذو باع طويل وتخصص وتفرد في هذا الموضوع - يشهد له بذلك كل من عرفه، كما يشهد له تراثه الذي خلفه من الكتب والشروح والتحقيقات، فجزاه الله عنا خيرًا، وجعله في ميزان حسناته يوم لقائه.

وأتوجه بالشكر لصاحب الفضيلة الشيخ فتحي أمين عثمان، الوكيل العام لجماعة أنصار السُّنة المحمدية بالقاهرة، لاهتمامه بنشر هذا التراث العظيم لعلماء جماعة أنصار السُّنة المحمدية، فلقد تكرم مشكورًا بإعطائي ما لم أجده في مكتبة والدي من أصول هذه المقالات - ووالدي متعه الله بالصحة والعافية - من مُحبي الأستاذ الدكتور العلامة محمد خليل هراس - رحمه الله تعالىٰ - والذي كثيرًا ما يحكي لي عن مواقف ومناقشات كانت تحدث بين العلامة الهراس، وكثير من علماء عصره.

وأتوجه لله – عز وجل – بالدعاء أن يرحم صاحب الفضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين، الرئيس العام لجماعة أنصار السُّنة المحمدية،

والذي شاء الله ـ الذي لا راد لمشيئته ـ أن يتوفاه قبل أن يكتب مقدمة هذه المقالات، فقد أوصاني ـ رحمه الله ـ بإعدادها ودقة مراجعتها على الأصل القديم لها، ثم إرسالها لفضيلته للتقديم لها والتعليق عليها، ولكن قدر الله كان أسبق.

وأسال الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرحم أستاذنا الدكتور العلامة محمد خليل هراس .. وجميع موتى المسلمين الذين شهدوا له بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة، وماتوا على ذلك، وأن يتقبلنا جميعًا في مستقر رحمته ..

ولاتنسنا أخي القارئ الكريم وكل من أسهم في إخراج هذا الكتاب بدعوة صالحة بظهر الغيب ليرد لك الملك الموكل: (ولك بمثل)[1].

وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه: عبد الكريم عبد المجيد محمد صالح الدرويش

حلوان في: فجر يوم الجمعة

٤/١/١٤٢٤هـ

Email: ak_darwesh@hotmail.com
ak_darwesh@yahoo.com

***

(١) رواه مسلم (٢٧٣٢).

عقيدة القرآن والسُّنة
المبادئ العامة لدراسة العقيدة
تمهيد

نرىٰ من الواجب ونحن نريد أن نكتب عن العقيدة الإسلامية، كما نطق بها الكتاب الكريم، والسُّنة الصحيحة، وكما فهمها السلف الصالح - رضي الله عنهم - من نصوص هذين المصدرين الكريمين، أن ننبه الأذهان إلىٰ جملة من المبادئ والأمور العامة التي لابد من الوقوف عليها قبل الدخول في المقصود، لأنها تعين القارئ علىٰ فهم المنهاج الصحيح الذي يجب أن يتبع في معالجة هذه المسائل الكبار التي هي أصول الدين والفقه الأكبر، وهذه الأمور هي:

أولاً: إن الكتاب والسُّنة هما النوران الهاديان والنبعان الصافيان اللذان قد تكفلا ببيان الدين كله أصوله وفروعه، فيجب أن نستمد منهما جميع الأحكام الدينية اعتقادية كانت أو عملية، ولا يجوز أن يعارضا بشيء من أقيسة العقل، أو الكشف والإلهام، أو تؤول نصوصهما بما يخرجها عن معانيها التي دل عليها الوضع اللغوي والعرف العام من أجل ما يزعمه بعض الناس من قرائن عقلية، ونحو ذلك.

ثانيا: إن مسائل العقيدة هي أصل الدين والأساس الذي تبنىٰ عليه جميع الأعمال من عبادات وغيرها، فيجب أن ترتفع عن مستوىٰ الخلاف والجدل، وأن لا تثار حولها الشكوك والشبهات، لأنها جميعا

من قبيل الأخبار الصادقة التي يجب أن تقابل بالتصديق والإذعان لا بالتشكيك والنكران.

ولهذا كانت متفقة في جميع الأديان، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال آمرا لنبيه عليه الصلاة والسلام بعد ذكر من سبقه من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

فالمراد به الاقتداء في أصل الدين من التوحيد والإيمان . ولهذا – أيضا – لا يسوغ فيه الاجتهاد، كما يسوغ في العمليات التي هي متعلق الأمر والنهي.

ولم يؤثر عن السلف الصالح – رضي الله عنهم – أنهم اختلفوا في العقيدة، كما أثر ذلك عنهم في الفروع، وقد ذم الله المختلفين في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

ثالثا: جميع الاختلافات الاعتقادية التي فرقت دين الأمة وجعلتها شيعا وأضرمت بينها نار العداوة والبغضاء وجعلت بأسها بينها شديدًا، وأضعفتها أمام أعدائها كانت كلها بحمد الله وليدة عوامل أجنبية لا صلة

لها بالدين، فكان أصحابها لا يصدرون فيها عن فهم صحيح الكتاب والسُّنة والاستمساك بهما، ولكن يصدرون إما عن هوىٰ غالب أو عصبية ممقوتة أو تقليد أعمىٰ، أو تأثر بالفلسفات الأجنبية والأفكار الدخيلة، أو خدمة لأغراض خاصة، أو حقد وموجدة علىٰ الإسلام ورغبة في إفساده علىٰ أهله، إلىٰ غير ذلك من عوامل هي أبعد ما تكون من الدين.

ولهذا ذم السلف - رضي الله عنهم - جميع الفرق المختلفة الخارجة عن دائرة الكتاب والسُّنة من: خوارج ومرجئة وشيعة ومعتزلة وقدرية وجهمية وغيرها، واضطروا إلىٰ عقد المناظرات، وتأليف الكتب للرد علىٰ هذه الفرق، والدفاع عن عقيدة أهل الحق مع كراهتهم الشديدة للخوض في علم الكلام، وذمهم للمشتغلين به حتىٰ قال الشافعي رحمه الله: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنة»[1].

ولعل تلك الكراهة الشديدة لعلم الكلام وأهله كان منشؤها اعتقاد السلف رحمهم الله أن الكتاب والسُّنة قد تكفلا في هذا الباب بما لا حاجة معه إلىٰ قول أحد ورأيه، وأن جميع العقائد الإيمانية مع أدلتها التفصيلية اليقينية موجودة فيهما بأجمل أسلوب وأوضح عبارة.

رابعًا: يزعم كثير من المشتغلين بعلم الكلام من أشعرية ومعتزلة وفلاسفة: أن أدلة العقل وحدها هي التي ينبغي أن يعول عليها في

(١) انظر: أحاديث في ذم الكلام وأهله (٤/ ٦٤٢)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٩).

التوصل إلىٰ العقائد الصحيحة لأنها أدله برهانية تفيد اليقين.

وأما الأدلة التي يسوقها القرآن الكريم لإثبات توحيد الله - عز وجل - وقدرته وعلمه وحكمته وغيرها، فهي بمعزل عن إفادة اليقين لأنها خطابية لا تفيد إلا الظن، ولا تصلح إلا لإقناع العامة!!!

وهذا القول في شناعته وجرمه يضاهئ به أصحابه قول المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين - وإن شناعته أعظم من أن يقدموا أدلة عقولهم المأفونة علىٰ أدلة القرآن الكريم، فيجعلوا عقولهم حاكمة ومهيمنة علىٰ كتاب الله - سبحانك هذا بهتان عظيم - وجهل فاضح بقدر القرآن، بل وبقدر من أنزله، وجعله هدىٰ للناس، وبينات من الهدىٰ والفرقان، وجعله موعظة وشفاء لما في الصدور، وأنزله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم.

إن أدلة القرآن لا تعتمد علىٰ تلك الجهالات والظنون الكاذبة، والأوهام الضالة التي تعتمد عليها أدلة عقولهم، ولكنها تعتمد علىٰ أسمىٰ ما في النفس من مشاعر وأحاسيس، ولا تقوم إلا علىٰ ما يراه الناس بأعينهم، ويلمسونه بأيديهم من عجائب الخلقة ودقيق الصنعة وتباين الأشكال واختلاف الصور، وما أودع في الأشياء من عظيم المنافع وضروب المصالح، إلىٰ غير ذلك مما يسكب في النفس برد اليقين، ويملؤها إيمانًا محضًا لا تشعر باختلاجة ريب ولا بريح شبهة.

وليست أدلة القرآن نقلية فقط كما زعموا، ولكنها نقلية وعقلية، فهي نقلية من جهة ورودها علىٰ لسان الشرع، وعقلية من جهة دلالتها، بل هي أسمىٰ ما يمكن أن يصل إليه العقل في الاستدلال، ولهذا يجيء كثيرا بعد سوق هذه الدلائل في القرآن أن تختم الآية بما يفيد أنها نزلت لقوم

يعقلون ويتفكرون ويعلمون ويسمعون.

وكيف لا تكون أدلة القرآن عقلية، وهو إنما نزل يخاطب العقل ويدعوه للبحث والنظر ويفتح أمامه آفاق التفكير واسعة[١]، ويطالبه بأن لا يؤمن بشيء إلا إذا قام عليه البرهان وأثبته العلم الصحيح، ويحذره- دائما- من الجري وراء الهوى والظن، والانسياق وراء التقليد الأعمى بلا مناقشة ولا تفكير.

خامساً: وهناك فرية أخرى تلوكها ألسنة هؤلاء المتهوكين المخذولين يجب التنبه لها، فقد خدعوا بها كثيرا من السذج، وهي قولهم: «أن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم»[٢].

وهذه العبارة تنادي على نفسها بما تنطوي عليه قلوب هؤلاء المغرورين بما عندهم من قشور فارغة من ازدراء بمقادير السلف وتجهيلهم، وأنهم لم يبلغوا من العلم والتحقيق مبلغ هؤلاء المتأخرين المتحذلقين.

وقد يشتد بك العجب إذا علمت أنهم إنما يعنون بالسلف خير قرون هذه الأمة، وأكملها علمًا وإيمانًا من الصحابة والتابعين، ومن جرى على نهجهم من أئمة الهدى الذين جانبوا البدع، ووقفوا عند الكتاب والسُّنة

---

(١) كل ما أخبر به الشارع الحكيم وما جاء به يجب الإيمان به والتسليم دون مناقشة علمت الحكمة أو لم تعلم. وهذا لايختلف فيه اثنان.

ومقصد المؤلف رحمه الله أنه لابد من قيام البرهان على وجود الله، وصحة الرسالة والقرآن. وأن ما جاء في القرآن والسنة فهو العلم الصحيح.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٨٧٣).

دون تزيد أو تقصير، فلم يخوضوا كما خاض هؤلاء في جدل عقيم وتخرصات كاذبة، ولم يقولوا على الله ما لا يعلمون، وكيف يجوز في عقل عاقل أن هؤلاء الكرام الذين قام بهم الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا يكونون أقل علما وحكمة من هؤلاء المخالفين للكتاب المختلفين فيه، ممن تلوثت عقولهم بالفلسفات الدخيلة، والأفكار العفنة التي نقلت إليهم عن المجوس والنصارى وعبدة الأوثان وصابئة حران.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عند تعرضه لرد هذه الفرية في عقيدته الحموية: «إن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك فهم بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، وان طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المعروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر. وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب طريقة الخلف»[١].

سادسًا: مما تقدم يعلم أن المنهج الذي سنلتزمه في هذا البحث هو ما جرى عليه السلف من الإيمان بكل ما ورد به الكتاب والسُّنة في باب

---

(١) العقود الدرية ص ٧٨ - ٨٨ .

الصفات وغيرها، من غير لجوء إلى تأويل متكلف يخرج اللفظ من معناه ويحرف الكلم عن مواضعه من غير موجب لذلك من قرينة ونحوها.

وأما ما يدعيه كثير من المتكلمين المعطلة من قرائن عقلية توجب تلك التأويلات، فغير مسلم لهم، بل العقل الصحيح الخالي من الهوى والتقليد لابد أن يكون موافقًا لما دلت عليه النصوص، فشعارنا إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

* * *

وجود الله عز وجل

لاشك أن الإيمان بوجود الله هو أساس العقائد الإيمانية كلها، بل أساس جميع الأديان والشرائع السماوية، لأنها جميعًا إنما قامت على أساس أنها نزلت من عند الله سبحانه.

ولهذا كان أهم ما يهدف إليه أهل المروق والإلحاد - من أعداء الرسل والأديان - هو التشكيك في وجود الله تعالى - كما نرى اليوم - فيما يشغف به دعاة الشيوعية وأذناب الوجودية، وغير هؤلاء وأولئك من عناصر الشر والفوضى والانتهازية .

ومن المؤسف ـ حقا ـ أن نرى كثيرًا من شبابنا المسلم المثقف يستجيب سريعا لهذه الدعوات المخزية مأخوذا بما يزينه له شياطينها من زخرف القول وباطله، وما يغرونه به من التحلل والانطلاق من قيود الدين والأخلاق.

فلا يلبس أن يقع في شراكهم صيدًا سهلا فيسلبونه دينه وخلقه وجميع مقومات حياته التي يعتز بها ويعيش من أجلها، ويصبح أداة طيعة في أيدي أولئك الأبالسة يستخدمونه لتحقيق مآربهم الخبيثة في الترويج لمبادئهم الهدامة التي ما سادت في أمة إلا سلبتها أعز ما تعتز به من دين وشرف وتقاليد وجميع مقدراتها الأدبية والروحية.

ولست أدري كيف يسوغ لعاقل يحترم عقله، ويقدر نعمة التمييز التي أكرمه الله بها، أن ينخدع لهذه الدعوات الإلحادية الخبيثة، فيما تهذي به من إنكار وجود الله، وهو يراه - سبحانه - ظاهرا في نفسه، وفي كل ما حوله من الأشياء التي هي آثار قدرته ومجالي علمه وحكمته وفيض وجوده ورحمته، والتي حمل النظر فيها كثيرًا من علماء الغرب الملحد أن يقروا بوجود الله على أنه ضرورة علمية لا مناص منها لمّا عجزوا عن تفسير ظواهر الكون وأعاجيبه تفسيرا ماديًا بحتًا، ورأوا أنها تسير كلها وفق غاية مرسومة ونظام محكم.

وإذا كان وجود الله يعتبر من أجلى البديهيات للعقول السليمة والفطر المستقيمة التي لم يفسدها الهوى والتقليد الأعمى، فهو ليس بحاجة إلى تلك الجدليات الفارغة التي اصطنعها علماء الكلام وسموها جهلا براهين، كقولهم: «العالم جواهر وأعراض، والأعراض حادثة، والجواهر لا تخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فثبت حدوث العالم بجواهره وأعراضه»[(١)].

فهذا الدليل هو عمدتهم في الاستدلال على وجود الله، لأنه إذا ثبت حدوث العالم بجميع أجزائه فلابد أن يكون له محدث، وهو الله عز وجل.

مع أن الدليل كما ترى مبني على مقدمات افتراضية غير مسلمة، وعلى نظريات قديمة في العالم الطبيعي، قال بها ديمقريطيس اليوناني،

---

(١) انظر: درء التعارض (٣/ ٢٥٣ - ٣٥٣).

وملخصها: «أن العالم مركب من ذرات غاية الصغر متشابهة، وأنها تجتمع بحركة تلقائية فتكون الأجسام، ثم تتفرق كذلك فتنحل الأجسام وتفنى»[(١)].

ولعل هذه النظرية الآن بعد نجاح العلم في تحطيم الذرة قد أصبحت في خبر كان.

ومن العجب أن هؤلاء المتكلمين يقدمون هذا الهذيان على أدلة القرآن، ويزعمون انه البرهان الأوحد على وجود الرحمن حتى يقول بعض هؤلاء الحمقى: (إن من لم يؤمن بالله من طريق هذا الدليل لم يتم إيمانه)[(٢)]، ويوجب من أجله الإيمان بذرات ديمقريطيس الوثني.

فكم من المسلمين يستطيع أن يفهم هذا الدليل أو يقنع به ؟!.

وعلى رأي هذا الجاهل لم يكن الرسول ﷺ ولا صحابته ولا التابعون لهم بإحسان ولا أحد ممن مات قبل اختراع هذا الدليل مؤمنا، لأننا نعلم بالضرورة أن هذا الدليل مبتدع لا أصل له في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور عن أحد ممن يعتد بدينهم وإيمانهم من سلف هذه الأمة.

إنا لنرجو مخلصين من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، ومعاونيه في إدارة تلك الجامعة الإسلامية الكبرى، وكلهم بحمد الله دكاترة[(٣)] فضلاء يؤمنون بحرية البحث وتطور الفكر أن يرحموا عقول طلاب الأزهر من هذه الكتب الجافة العقيمة التي لا تحمل بين سطورها إلا نتاج عقول مريضة، وأفكار ونظريات غريبة عن الإسلام.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (١/ ٢٠٩)، (٢/ ٩٧٢).

(٢) انظر: درء التعارض (٧/ ١٢٤).

(٣) الأولى أن يقال (علماء).

إن طريقة القرآن الكريم هي أقوم الطرق وأهداها، وفيها لمن تأملها الكفاية والشفاء، بل هي الأدلة التي يتعين الإيمان بالله وأسمائه وصفاته من طريقها.

وليس لقائل أن يقول: إنها أدلة نقلية لا يؤمن بها إلا من يعتقد بالقرآن.

لأننا نقول: إن أدلة القرآن نقلية وعقلية؛ فهي نقلية من جهة ورودها ونصب الشارع لها، ولكنها عقلية من جهة دلالاتها(١)؛ لأن الله عز وجل نصبها للعقول جميعا لتنظر فيها وتستدل بها، وهي أقرب إلى العقل من هذه الألغاز والأحاجي التي يستعملها أهل الكلام والجدل، فإنها تستند دائما إلى ما يشاهده الناس، ويقع تحت حواسهم، ويتصل بحياتهم، ويتفاعل مع مشاعرهم من اختلاف صور الأشياء وألوانها ومنافعها، وما يتجلى فيها من دقة الصنع، وإحكام التركيب، وتناسب الأجزاء، وما يحصل من تحولها وانتقالها، وكيفية نشوئها، وتولد بعضها من بعض، وتأثير بعضها في بعض، وما يترتب على ذلك من مصالح، ومنافع مقصودة إلى غير ذلك مما يراه كل أحد ولا يستطيع أن ينكره.

ولهذا كانت أدلة القرآن هي الأدلة التي تصلح لجميع الناس على اختلاف عقولهم وتفاوت ثقافتهم، كما قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ

---

(١) وليس من شرط ذلك أن يدركه كل إنسان، لأن عقول الناس قاصرة عن إدراك كل شيء وكانت حكمة الله تعالى أنه لم يكلف الإنسان البحث عما لا يدركه عقله من الدلالات. الناشر

وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وأرى بعد هذه المقدمة أن أعرض عليك أيها القارئ الكريم بعض النماذج من أدلة القرآن العظيم، تاركا لك أن تتأملها بعقلك وتفتح لها قلبك ووجدانك حتى يتم انتفاعك بها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

وقال جل شأنه في أول سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٢-٤].

وقال جلت آلاؤه في سورة النحل: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾

[النحل: ٦٥-٦٩].

وقال تقدست أسماؤه في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

وقال جل ثناؤه في سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

هذا قليل - من كثير - مما ورد في القرآن الكريم من دلائل وبراهين لا تدل على وجوده سبحانه وتعالى فحسب، ولكنها تدل - أيضا - على وحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته وجوده ورحمته، وغير ذلك من صفاته التي ترجع إليها أفعاله، والمفعولات دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، وهي تدل على وجود الموصوف بها جل شأنه.

يقول العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الفوائد: «فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه، لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة»[1].

ثم إن الاعتقاد بوجود الله - عز وجل - أمر مركوز في الفطر، كما حكى الله عن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أنهم قالوا لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قدمت بين يدي القراء جملة من آيات القرآن الكريم تدعو إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله فيهما من أشياء، تنطق بعظيم قدرته، وجسيم تدبيره، وبالغ حكمته. وتركت لهم أن يتأملوا

---

(١) الفوائد ص ٢٠ .

بأنفسهم في هذه الآيات حتىٰ يدركوا ما تضمنته من الدلائل والبراهين، وكنت أحسب أن فيما قدمته الكفاية، ولكن بعض الإخوان رغب إليّ أن أزيد هذا الموضوع تجلية، نظرا لأهميته وحاجة الناس إليه بسبب ما يلقيه الملاحدة في أوساط الشباب من سموم الجحود والإنكار - لاسيما - وقد اتسم هذا الإلحاد بسمة العلم ولبس ثوب التفلسف، فلابد من مقابلته بالأدلة التي تكفي لاستئصال شأفته ودحض فريته.

وأرىٰ - قبل أن أجيبهم إلىٰ طلبهم - أن أذكرهم بحكاية ذلك الأعرابي الذي قيل له: بما عرفت ربك ؟ . فأجاب علىٰ البديهة: «البعرة تدل علىٰ البعير، والقدم يدل علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدل علىٰ اللطيف الخبير ؟!»[1] .

وهي حكاية نسوقها كشاهد علىٰ أن الفطرة السليمة التي لم تتدنس بالجحود، ولم تفسد بالتقليد الأعمىٰ والجري وراء الأهواء والشهوات لا تحتاج في إيمانها بالصانع الأعظم إلىٰ أن تحشد لها الحشود من الأدلة والبراهين.

فليس مناط الإنكار هو قلة الأدلة ولا قصورها عن إفادة المطلوب، فإن كل شيء مما يراه الإنسان أو يحسه صالح أن يكون دليلاً . ولكنه الإعراض والغفلة والاستكبار عن النظر في آيات الله - عز وجل - والتعامي عنها، والغرور الأحمق بما وصل إليه علم الإنسان من تقدم في الكشف والاختراع، ونسيان الإنسان نفسه، وعدم تفكيره فيما خلق له، حتىٰ ظن أنه واحد من هذه الحيوانات التي تملأ البر والبحر فليس لوجوده

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٥٩).

غاية ولا من ورائه حكمة، وإنما هو وليد الصدفة، وسليل التطور إلىٰ غير ذلك مما تهجس به أفكار الناس في هذا العصر الذي لا يعرف إلا المادة وقوانين المادة، ولا يكلف نفسه النظر إلىٰ ما وراء ذلك من الغايات البعيدة والحكم العالية التي يشهد بها هذا الاتساق العجيب بين أجزاء الكون، وهذا التناسب والانسجام الذي يلمحه البصير في كل ذرة من ذراته فلا عوج ولا فطور ولا تفاوت ولا تنافر بل نظام والتئام، كما قال تعالىٰ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل:٨٨]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [آل عمران:١٨]، ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].

يحكي ابن كثير في تفسيره: أن جماعة من الزنادقة جاءوا إلىٰ أبي حنيفة - رحمه الله - وطلبوا إليه أن يقيم لهم الدليل علىٰ وجود الله، فقال لهم: نعم سأفعل، ولكن أمرًا قد بلغني الساعة فأقلقني وحيرني، وقد جئتم وأنا أفكر فيه، قالوا: وما ذاك ؟. قال: بلغني أن سفينة بعرض دجلة موقرة بأنواع المتاع تمشي وحدها بلا ربان يقودها، ثم ترسو علىٰ الشاطئ بنفسها، فتفرغ حمولتها وحدها، ثم تعود لتمتلئ ثم تجيء لتفرغ، ليس معها أحد، فقالوا له: وهل ذاك يعقل ؟. فقال لهم: إذا كنتم لا تصدقون هذا ولا تعقلونه في سفينة صغيرة، فكيف ساغت عقولكم أن هذا الكون العظيم الممتلئ بما لا يحصىٰ من الأجرام العلوية والسفلية يسير وحده بلا مدبر ؟

فرجع هؤلاء الزنادقة عن أفكارهم وأسلموا[١] .

ويذكر ابن كثير - أيضا - أن هارون الرشيد، سأل مالك بن أنس - رحمه الله - دليلا على وجود الله فاستدل له باختلاف الألوان واللهجات والأصوات[٢] .

ولاشك انه استدلال صحيح، والقرآن الكريم نفسه قد نوه به وجعله من جملة الآيات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر:٢٧، ٢٨].

ومما يستوقف النظر هنا: أن كلا من الآيتين قد ختمت بما يفيد أن آية الاختلاف في الألوان والأصوات قد اختص بإدراكها العلماء، وأي عالم لا يسعه إلا أن يطأطئ الرأس أمام هذه الآية الكبرى التي لا يزال العلم رغم تقدمه عاجزا عن تعليلها مما يشهد بأن هذا التنوع والتخصص إنما هو بتقدير العزيز العليم.

ويروي ابن كثير عن الإمام الشافعي - رحمه الله - أنه قال بصدد الاستدلال على وجود الله عز وجل: «هذه ورقة التوت شيء واحد، تأكله النحلة فتخرج عسلا، وتأكله الدودة فتخرج أبريسم، وتأكله

---

(١)، (٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩).

البهيمة فتخرج لبنا»[١].

ومن هذا أن الشافعي يستدل بالاستحالات المختلفة التي يصير اليها الشيء الواحد، وهو باب واسع جدا من أبواب الاستدلال. ويكفي أن يتأمل الإنسان في نفسه: فهذا الدم الذي يجري في عروقك شيء واحد، ومع ذلك يدخل في تركيب الأعضاء المختلفة، وهو في الفم لعاب، وفي العين دمع، وفي الأصلاب نطف، وفي الأثداء لبن .

وهذه النطفة التي يتخلق منها قد تقلبت في أطوار عدة، واستحالت من نطفة إلىٰ علقه إلىٰ مضغة إلىٰ عظام حتىٰ صارت بشرا سويا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وأما الإمام أحمد - رحمه الله - فيحكي عنه ابن كثير أنه قال: «ها هنا حصن محكم أملس ليس به منافذ ولا ثقوب، فبينما هو كذلك إذ انفتح الحصن وخرج منه حيوان سميع بصير»[٢]، فالحصن هو البيضة تظهر ملساء لا ثقوب بها يتخلق فيها الطائر حتىٰ إذا اكتمل نقرها وخرج منها.

فليتأمل البصير فيما يحدث حوله من أشخاص النبات والحيوان: فهل يعقل أن تكون قد أحدثت نفسها بلا محدث ؟ وهل يخرج العدم وجودًا ؟ وهل تنشئ الفوضىٰ نظامًا ؟. وهل يحدث بيت بلا رسم وتصميم سابق ؟

وصدق الله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝﴾ [الطور:٣٥، ٣٦].

* * *

(١)، (٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٠).

توحيد الله عز وجل

التوحيد هو صفة الله – عز وجل – إما أن يكون توحيدًا في إلـٰهيته، بمعنىٰ: أنه هو الإله المعبود بحق الذي ينبغي أن تتألهه القلوب محبة وتعظيما وإجلالاً وخوفًا ورجاء، وأن تفرده بالعبادة والتقديس، وأن تخلص له الدين في كل ما دان به عباده من أمر أو نهي.

وهذا النوع هو المتبادر من لفظ التوحيد عند إطلاقه نظرا لأهميته، فهو التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام أممهم وقاتلتهم عليه، وهو الذي خلق الله الخلق جميعا لأجله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وجعلت كلمة لا إله إلا الله لأنها معبرة عنه دالة عليه أفضل الكلام، وبالإقرار بها يثبت الدخول في دين الإسلام.

وإما أن يكون توحيدا في ربوبيته، بمعنىٰ: إفراده سبحانه بكل ما هو من شئون الربوبية، وخصائصها من الخلق والرزق والتدبير والحكم، فهو وحده رب العباد ومليكهم ومدبر أمورهم لايخرجون عن مشيئته وقدره، وكلماته التامات التي لا يجاوزها بر ولا فاجر، وهذا النوع من التوحيد كان يقر به المشركون ولا ينكرونه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وإما أن يكون توحيدًا في الأسماء والصفات بمعنىٰ اختصاصه – تعالىٰ – بكل ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وعدم مشاركة أحد من المخلوقين في شيء منها، وبمعنىٰ

إثباتها كلها له - سبحانه - دون تعرض لشيء منها بالإنكار أو التأويل.

وهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد، وإن كانت تبدو متغايرة في المفهوم، وفيما يتعلق به كلٌّ منها إلا أنها متلازمة في الوجود بحسب العقل، فإنه كلما ثبت له سبحانه الانفراد بشئون الربوبية كلها من الخلق، والملك، والرزق، والتدبر، ونحوها ....

فقد ثبت له الانفراد باستحقاق العبادة والتقديس ... إذ لا يستحق ذلك إلا من كان خالقًا مالكًا.

وبالعكس كل من كان عبدا لله - عز وجل - وحده فلابد أن يكون قد رضي به ربًا، فلم يشرك به أحدًا فيما هو من سمات الربوبية وخصائصها، إذ لو جاز أن يشركه أحد في شيء من ذلك لكن مستحقا للعبادة معه حاشاه سبحانه .

وكذلك كل من وحد الله في إلـهيته، وربوبيته فلابد أن يعتقد اختصاصه بما له من الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ التي لا تنبغي إلا له فلا يجعل له شبيها فيها .

وينبغي أن يعلم أن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه، ينقسم من ناحية أخرىٰ إلىٰ قسمين: توحيد الإثبات والمعرفة، ويسمىٰ التوحيد العلمي الخبري، وتوحيد في القصد والطلب، ويسمىٰ التوحيد الإرادي الطلبي.

فالأول: يتعلق بإثبات حقيقة ذات الرب سبحانه وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر بذلك عن نفسه، وكما أخبر عنه رسوله ﷺ.

وإنما سمي هذا النوع من التوحيد بالعلمي أو الخبري لأنه لا يقصد منه إلا مجرد العلم بالله - عز وجل - وأسمائه، وصفاته، والإخبار بها عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ١-٣]. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وأما الثاني: أعني التوحيد في القصد والطلب، فمعناه: إخلاص النية لله عز وجل، وتمحيص القصد له؛ فلا يريد بعمله وقوله إلا وجه

الله، ولا يبتغي إلا ثوابه ورضاه، فيكون الله عز وجل هو مطلوبه ومقصوده في عبادته، وتكون إرادته متجردة من شوائب التعلق بغيره.

وقد جاء القرآن الكريم بإثبات هذا النوع من التوحيد والدعوة إليه كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٤، ٦٦].

وكما كانت سورة الإخلاص نصا في التوحيد العملي فقد جاءت سورة الكافرون نصًا في التوحيد القصدي. ولهذا ورد أن النبي ﷺ كان يقرأ بهما في سنة الفجر وسنة المغرب[١].

وبالجملة فغالب سور القرآن - بل كلها - متضمنة لهذين النوعين من التوحيد، فإن القران إما خبرًا عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري.

---

(١) صحيح مسلم (٧٢٦)، والترمذي (٤٣١)، والنسائي (٩٩٢، ٤٣١).

وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل لهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة وهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل لهم في الدنيا من النكال وما يفعل بهم في العقبىٰ من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم.

وسلك القرآن الكريم في إثبات النوع الأول والأهم من التوحيد وهو توحيد الإلـٰهية طرقًا يمكن إجمالها فيما يأتي:

من المعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ وأمر بقتالهم، كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، كما حكىٰ القرآن عنهم في مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

وفي مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ

وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنين: ٨٤-٨٩] .

وفي مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان: ٢٥].

والقرآن الكريم يؤاخذهم بهذا الإقرار في قوة، ويعيب عليهم أنهم مع إقرارهم بأن الله هو رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه المدبر للأمور كلها يجعلون له أندادًا يساوونها به في استحقاق العبادة مع علمهم أنها لا تخلق شيئًا ولا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا .

فهو يتخذ من توحيد الربوبية الذي يقرون به دليلا علىٰ توحيد الإلـٰهية الذي ينكرونه، ويصرف القول في هذا الباب تصريفا عجيبا، يحمل القوم حملا علىٰ الإقرار بقضية التوحيد ويعلق القلوب تعليقًا بهذا الخالق المنعم الرحمن الرحيم حتىٰ تؤلهه وحده محبة وتعظيمًا وإجلالاً وخوفًا ورجاءً وإنابةً واستكانة وتضرعًا ودعاءً وتوكلاً واستعانة، ساخرة كل السخرية من هذه الآلهة المزعومة التي لا تملك شروىٰ نقير، وإليك بعض النماذج من هذا الباب:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[البقرة: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١-٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ

لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

ويطول بي القول - جدًا - لو حاولت استقصاء كل ما في القرآن الكريم في هذا الباب، ولكني أحيلك أيها القارئ على بعض السور التي يكثر فيها إيراد مثل هذه الأدلة العظيمة التي تصرخ في وجوه أهل الشرك والوثنية وتبرزهم في صورة من السفاهة والجهل لا يرضاها عاقل لنفسه، فاقرأ هذا إن شئت في مثل سورة يونس، هود، الرعد، الحجر، النحل، الأنبياء، المؤمنون، الفرقان، العنكبوت، الروم، فاطر، الزمر، السجدة، الزخرف، ق، الواقعة، عم، والنازعات، وغيرها في القرآن كثير.

ثانيًا: من أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية تصويره لحال الآلهة المزعومة في سور قوية أخاذة تظهر حالها الشنيعة، وما هي عليه من النقص والعجز والزلة والمهانة. فهي لا تخلق شيئًا ولا تدبر أمرًا ولا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا، بل هي عند الموازنة قد تنقص حالها عن حال العابدين لها.

فكيف يرضىٰ إذا عاقل لنفسه أن يعبد من هو أسوأ منه حالا وأهون شأنًا، وأن يذل ويخضع لمن هو في نفسه خاضع ذليل، وأن يدعو ويسأل من لا يملك أن يستجيب له بشيء، وأن يتزلف ويتقرب إلىٰ من لا تفيد عنده الزلفىٰ ولا رغب لديه ولا رهب. وأنىٰ له ذلك وهو جماد ميت لاحس ولا حركة ولا سمع ولا بصر.

وكيف يبلغ السخف بالعقول أن تعتقد أن لهؤلاء الموتىٰ قدرة بها يفعلون ما لا يقدر عليه البشر، وأن فيهم حياة بها يحسون بمن دعاهم أو استغاث بهم وهم لم يروا أحدًا منهم خرج من قبره مرة فمشىٰ بينهم، ولا كلموا أحدا منهم مرة فجاءهم رجع الجواب، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وكما يصور القرآن الكريم هؤلاء المعبودين في تلك الصورة الشنيعة التي تنفر كل ذي عقل ممن كرمت عليه نفسه أن يقصدهم بحاجة، أو يشعر نحوهم بشيء من الرهبة، أو يخشىٰ علىٰ نفسه غضبهم ونقمتهم. كذلك يصور العابدين لهم بصورة يربأ كل عاقل كريم أن يكون عليها، صورة يتمثل فيها الغباء والجهل والإضلال والحمق والظلم والافتراء، بل الإجرام والتجني.

يقول تعالىٰ منكرا علىٰ من عبد المسيح وأمه من النصارىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦] .

ففي هذه الآيات ينفي الله عز وجل عن المسيح - عبده ورسوله - وعن أمه مريم - الصديقة - الإلٰهية، بدليل أنهما كان يأكلان الطعام فاحتياجهما إلىٰ الطعام لدفع غائلة الجوع ثم احتياجهما بعد ذلك لإخراج الأذىٰ المتخلف عن الطعام دليل النقص، والنقص ينافي الإلٰهية.

ثم يأمر رسوله ﷺ وكل أحد، أن يعجب من حال هؤلاء في الانصراف عن الحق، بعد بيانٰ الآيات ووضوحها، ثم ينعي عليهم عبادة من لا يملك لهم شيئًا من الضر ولا من النفع، ثم يخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة؛ لأنه السميع لأقوال عباده، العليم بنياتهم وأعمالهم، ولا يكون إلها إلا من كان سميعا عليما.

يقول سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ۝١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾

[الأعراف: ١٩١، ١٩٨].

فهل رأيت أيها القارئ الكريم صورة أخزىٰ وأشنع من تلك التي تصور - بها هذه الآيات - حال هذه الآلهة الباطلة في عجزها وجهلها ونقصها فهي:

أولاً: لا تقدر أن تخلق شيئا حتى ولا مثقال ذرة، بل هي في ذاتها مخلوقة محتاجة إلى من يعطيها خلقها فكيف تعطي الخلق لغيرها ؟! وهل يعطي الشيء فاقده .

ثانيًا: لا تستطيع نصرًا لعابديها فلا قوة لها تمنعهم بها من عدوهم، ولا تدفع عنهم عذاب الله إن نزل بهم .

ثالثًا: لا تستطيع نصر نفسها ولا تملك أن تدفع أي أذى لحق بها فلو قام الناس على هذه القباب والأضرحة فهدموها وأزالوها وجردوا هذه القبور من كل حلية حلوها بها ومن كل مظهر شركي كاذب زينوها به، فهل تستطيع أن تمتنع عليهم؟!

وصدق الله إذ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

رابعًا: لا تسمع من دعاها إلى الهدى ولا تستجيب لهم فسواء عليه أدعاها أم سكت، وكيف يجيب إلى الهدى من لا يسمع ولا يعي وهو خال من الإدراك والحياة؟!

ثم هي بعد ذلك: عباد لله أمثال العابدين لها، وليس من المعقول أن يعبد عبد عبدًا مثله أو يستجيب عبد لعبدٍ مثله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤] .

ثم نزل بهذه الآلهة المزعومة إلىٰ أبعد حد من النقص والهوان فنفىٰ عنها الأرجل والأيدي والأعين والآذان.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يتحدىٰ هؤلاء المشركين وآلهتهم بأن يكيدوا له شيئا من الكيد دون تريث أو إمهال، كما قال نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

وكما قال هود لقومه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

ثم أعلن فيهم: أن وليه وناصره هو الله الذي نزل الكتاب وهو يتولىٰ الصالحين من عباده، ولكن ما يدعونهم من دونه لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون، وإن دعوا إلىٰ الهدىٰ لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك بأبصار كاذبة صنعها عابدوهم، وهم في الواقع لا يبصرون.

وهكذا ترسم هذه الآيات الكريمة أروع صورة لهذه الآلهة تنفي عنها كل ما يزعمه العابدون لها حتىٰ لا تبقىٰ لأحد شبهة في الجري وراء هذه الأوهام الكاذبة التي صورت لهم أصحاب هذه القبور في صورة أبطال الأساطير.

ويقول الله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

فهذه الآية الكريمة توبخ ـ أشد التوبيخ ـ من يعبد هذه الآلهة حتى على سبيل الاستشفاع بها إلى الله ـ عز وجل ـ وهذا ما يدعيه أكثر الناس ـ اليوم ـ حين ينكر عليهم أهل الحق صنيعهم ويضيقون عليهم الخناق، يقولون: إنما نتخذها وسائط تبلغ حوائجنا إلى الله، وتشفع لنا عنده، نفس ما كانت الجاهلية الأولى تفعله.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝﴾ [يونس:١٠٦] .

فأي وعيد أبلغ من هذه الآية التي تسجل الظلم على رسول الله ومصطفاه، إن هو دعا من دون الله أحدًا، أو جعل له من عباده ندًا ؟.

وما كان لرسول الله ﷺ أن يفعل، ولكنه تحذير لأولئك المفتونين حتى لا يغتروا بما يزعمونه لآلهتهم من جاه ومنزلة. فإنهم إذا علموا أن مقام الرسالة نفسه لا يشفع لصاحبه - عند الوقوع في حماقة الشرك[1] - وأن وعيد الله جدٌّ لاحق بكل من عبد غيره أو دعاه: أيأسهم ذلك عن الطمع في شفاعة آلهتهم، وعلموا أنها لن تغني عنهم من الله شيئًا.

ويقول ـ جل شأنه ـ حكاية عن هود ـ عليه السلام ـ حين خوفه قومه نقمة آلهتهم وقالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤].

فأجابهم بلهجة الخبير بحال هذه الآلهة، وأنها لا تملك أن تناله بأقل أذى، وأنه متوكل على ربه الذي بيده نواصي الخلق كلهم، واثق من

(١) حبذا لو كانت العبارة: «حال الوقوع جدلاً فى حماقة الشرك».

نصره وتأييده: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

ويقول تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعٗا وَكَرْهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ ۩ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ۝﴾ [الرعد: ١٤-١٦].

والمتأمل في هذه الآيات الثلاث يجدها قد بلغت الغاية في بيان زيف هذه الآلهة الباطلة، عند مقارنتها بالإله الحق، وأنها لا تملك من مقومات الإلهية شيئًا.

فهو وحده الحقيق بأن يدعى ويرغب إليه، لأنه هو الحي القيوم السميع البصير، الذي يملك أن يستجيب لمن دعاه. وأما ما يدعى من دونه فهو في غفلة عمن دعاه، لا يسمعه ولا يراه، ولا يقدر أن يستجيب له بشيء.

وما أروع تشبيه من يدعو غير الله أو يسأله برجل بسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.

ثم هو وحده الذي يخضع له كل من في السماوات والأرض، وينقادون لحكمه طائعين أو مكرهين لا يستطيع أحد منهم أن يخرج عن أحكام ربوبيته وقهره. وهو وحده رب السماوات والأرض باعتراف هؤلاء المشركين أنفسهم، فكيف يتخذون من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا. وكيف يجعلون له شركاء من خلقه، فهل رأوهم خلقوا شيئًا فتشابه الخلق عليهم، كلا. بل هم يعملون أن الله وحده هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

ويقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

فتأمل هذه الأوصاف الثلاث التي أجراها الله- عز وجل- على ما دعي من دونه، فهم- أولاً- لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون.

وهم - ثانيًا - أموات غير أحياء.

وهم - ثالثًا - لا يشعرون أيان يبعثون.

فمن كان على هذه الصفة من كونه مخلوقًا وميتًا وغافلاً لا يدري متى يبعث، كيف يجوز أن يدعى ويسأل؟

ولا يستطيع القبوريون أن يدعوا أن هذه الآية في حق الأصنام التي هي خشب وحجارة. بل هي في شأن الموتى من الأنبياء والصالحين، بدليل قوله: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝﴾ [النحل: ٢١]، فإنه لا معنى لوصف الأصنام بذلك إذ ليس من شأنها الحياة والشعور.

ويقول سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

فهذان مثلان ضربهما الله ـ عز وجل ـ لنفسه ولما يعبد من دونه، فهو في الأول يشبهه بعبد مملوك لا يقدر على شيء، فكيف يستوي هو ومالك غني ينفق كيف يشاء ؟

وفي الثاني يشبهه برجل أبكم لا يقدر على شيء وهو مع ذلك عالة على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، فكيف يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟.

ويقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

نزلت هذه الآيات فيمن كانوا يدعون المسيح وأمه وعزيرًا والملائكة(١)، قيل لهم: إن هؤلاء مهما دعوتموهم فلا يملكون إزالة الضر عنكم ولا تحويله إلى غيركم، وهم مع ذلك عباد مثلكم يبتغون ما

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٠٤)، وابن كثير (٣/ ٤٨).

يقربهم إلى الله - عز وجل - ويرجون رحمته كما ترجون، ويخافون عذابه كما تخافون.

ويقول جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

فإذا بلغت هذه الآلهة من العجز أنها لو اجتمعت على خلق ذبابة لا تقدر عليها، بل حتى لو سلبها الذباب شيئًا لا تستطيع استنقاذه منه. فكيف يليق بعاقل بعدما عرف من عجزها وهوانها أن يذل لها ويخضع، أو أن يتوجه إليها طالبًا سائلاً.

ويقول سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

فهل رأيت العنكبوت في ضعفه وحقارته، وهل نظرت إلى بيته في رقة نسجه ووهن خيوطه بحيث لا يمنع حرًا ولا بردًا، ولا يحمي من أذى.

فهذا مثل ضربه الله لمن يتخذهم الناس أولياء من دونه، فإذا كان بيت العنكبوت يغني عمن يلجأ إليه أمكن أن يغني هؤلاء عن عابديهم.

ومن الأساليب القرآنية في الدعوة إلى توحيد الإلهية ما يجريه الله - تبارك وتعالى - على نفسه من أسماء وصفات، يعلم المشركون أن آلهتهم التي يدعون من دون الله لا تسمى بها ولا تتصف بشيء منها، فاختصاصه - سبحانه - بهذه الأسماء والصفات التي لا تنبغي إلا له، والتي لا يكون إلهًا

إلا من اتصف بها، دليل على استحقاقه وحده للعبادة والتقديس.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

فبعد أن ذكرت الآية قضية التوحيد، أردفتها بذكر اسمين من أسمائه تعالى، وهما: (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، ليكون هذان الاسمان بمثابة الدليل عليها.

ولا شك أن ما يفيد اقتران هذين الاسمين الكريمين من الرحمة الواسعة التي اتصف بها ـ سبحانه وتعالى ـ والتي رحم بها عباده من خصائصه التي لا يشاركه فيها أحد.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فانظر كيف صدرت هذه الآية العظيمة بكلمة التوحيد: (لا إِلَهَ إِلا هُوَ) ثم أجرت عليه ـ سبحانه ـ بعد ذلك جملة من الأسماء والصفات في النفي والإثبات يصلح كل منها – وحده – ليكون دليلاً على وحدانيته:

فذكرت أولاً أنه (الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، أي: المتصف بالحياة الذاتية الكاملة التي هي من لوازم ذاته لم يستفدها من غيره، فهي لهذا أبدية

دائمة لا يلحقها موت ولا فناء، والمتصف بالقيومية الشاملة التي هي قيامه بنفسه واستغناؤه عن غيره من كل وجه مع قيام غيره به، بحيث لا يستغني عنه لحظة؛ لأنه فقير إليه فقرًا ذاتيًا لا غنىٰ معه أبدًا.

وقد ذكر العلماء أن اقتران هذين الاسمين الكريمين في هذا الوضع وغيره من القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ٢]، وقوله جل شأنه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ۝١١١﴾ [طه: ١١١]، لتضمنها جميع صفات الكمال الذاتية والفعلية.

فصفة الحياة تقتضي للمتصف بها صفات من العلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام، وغير ذلك مما تعتبر الحياة شرطًا فيه، بحيث لا يوجد شيء منها إلا مع الحياة، ولا توجد هذه الصفات جميعها على أكمل وجه إلا فيمن كانت حياته أكمل حياة.

وكذلك صفة القيومية تقتضي للمتصف بها من كمال الفعل وتمام التدبير، وسمو الحكمة وحسن الرعاية والكلاءة ما لا يمكن أن تتم القيومية بدونه.

فكمال حياته وقيوميته ـ سبحانه ـ مستلزم لكماله في جميع ما له من صفات الكمال في الذات وفي الفعل؛ ولهذا ورد أنهما اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

ثم نفت الآية عنه ـ سبحانه ـ ما ينافي كمال قيوميته من السِّنة والنوم، فقالت: (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ).

والسُّنة: النعاس الذي هو أول النوم، فهي لا تستغرق الحس كما يستغرقه النوم.

ثم أخبرت عن تمام ملكه وشموله لجميع العوالم العلوية والسفلية، فقالت: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ).

ولكن تمام الملك يقتضي أن لا يكون لأحد معه شركة أصلاً بشفاعة ولا معاونة ولا مشاورة ولا غيرها. فنبهت الآية على ذلك بنفي الشفعاء الذين يشفعون عنده بغير إذنه، وأوردت ذلك النفي في أسلوب إنكاري صريح يقطع أطماع القبوريين، فقالت: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ).

ولما كان موجب الشفاعة هو جهل المشفوع عنده بحال المستشفع بحيث يحتاج إلى من يعرفه حاله، ويبين له من أمره ما يقتضي قبول شفاعته فيه، فقد نزهت الآية ربنا ـ سبحانه ـ عن حاجته إلى شفاعة شافع من جهل، فذكرت من تمام علمه بالأمور كلها مستقبلها وماضيها وحاضرها وظاهرها وخافيها وحسيها ومعنويها، ما لا يمكن معه أن يخفى عليه حال أحد من هؤلاء المستشفعين إليه.

وعلى هذا فلا شفاعة عنده إلا بإذنه، وإلا لمن رضي قوله وعمله.

ثم نبهت الآية على قلة علوم العباد إذا قيست إلى علمه تعالى، فهي لا تعدو أن تكون قطرة في بحر، وهم لا يتوصلون إلى شيء من العلوم الدينية أو الكونية إلا بما شاء هو أن يعلمهم إياه، مما يهيئ لهم أسبابه، ويهديهم إلى طرقه من الفكر والاستنتاج والتجربة.

ثم دلت على سعة ملكه وعظيم سلطانه بسعة كرسيه وإحاطته بالسماوات والأرض حتى كأنها في جوفه كحلقة ملقاة في فلاة كما ورد بذلك الحديث[١].

ثم ختمت الآية العظيمة بهذين الاسمين الجليلين وهما: (الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، فأفادت علوه المطلق على سائر خلقه من كل وجه، فهو علو الذات وعلو القدرة وعلو القهر، كما أفادت عظمته التي لا حد لها والتي يتضاءل ويصغر أمامها كل عظيم.

وهكذا تشتمل سيدة آي القرآن الكريم على هذه الطائفة من الأسماء والصفات الكريمة التي لا توجد في آية غيرها، والتي يصلح كل واحد منها لأن يكون وحده برهانًا كافيًا على انفراده ـ جل شأنه ـ باستحقاقه العبادة والتقديس.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [الحشر٢٢-٢٤].

وهكذا جعل القرآن الكريم اختصاصه ـ سبحانه ـ بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا، شاهد صدق وبرهان حق، على ما دعت إليه

---

(١) الطبري في تفسيره (٣/ ١٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧، ٦٣٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٢).

رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من وجوب توحيده وإخلاص الدين كله له، فله يسلمون وجوههم، وإليه يفزعون في كل ما ينوبهم، ويكون له وحده خضوعهم وضراعتهم، فهو الإله المألوه وحده الذي تألهه القلوب محبة وخوفًا ورجاء وإنابة وذلاً واستكانة ورغبة ورهبة وتوكلاً واستعانة وسؤالاً ودعاء وتوبة وإنابة، وحلفاً ونذرًا وذبحًا إلىٰ غير ذلك من أنواع العبادات التي هي حقه علىٰ عباده.

إن صور الأدلة والبراهين التي يسوقها القرآن الكريم علىٰ توحيد الربوبية ببيان أن هذا الإقرار برب واحد منفرد بالخلق والرزق والتدبير والملك والإحياء والإماتة والتصوير والإبداع وما إلىٰ ذلك من شئون الربوبية المطلقة التي تشمل كل شيء، وتنظم جميع العالم علويه وسفليه، كان هذا الإقرار يقتضي من المشركين ـ لو أنهم أنصفوا أنفسهم، ولم يركبوا متن الشطط والجور، ولم يمعنوا في السفه والضلال ـ ألا يجعلوا مع الله إلهًا آخر يشركونه به في ما هو محض حقه من العبادة في جميع صورها قلبية كانت أو قولية أو بدنية أو مالية.

ولكن توحيد الربوبية - نفسه - الذي جعل دليلاً علىٰ توحيد الإلٰهية رغم أنه مركوز في الفطر ومستقر في أذهان العقلاء حتىٰ أنه لم يذهب إلىٰ نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: أن للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال، قد يحتاج إلىٰ تنبيه يزيل ما عسىٰ أن يقع فيه من الخفاء والاشتباه، لا سيما وقد ضلت فيه بعض الطوائف كالثنوية من المجوس، والمانوية القائلين

بصدور العالم عن خالقين هما النور فاعل الخير وخالق الحيوانات النافعة، والظلمة فاعلة الشر ومصدر الحيوانات المؤذية والشياطين الشريرة.

وكذلك النصارى القائلين بالتثليث يجعلون الآلهة الخالقة ثلاثة، وإن كان المتأخرون منهم يحاولون تفسير الأقانيم الثلاثة بأنها خواص أو صفات لإله واحد.

وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

ولهذا لم يفت القرآن الكريم أن يؤكد هذا المعنى الفطري، ويزيده تثبيتًا بإيراد الأدلة القاطعة على وحدانية الله - جل وعلا- وانفراده بالربوبية المطلقة، والآية الفذة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٩١].

يقول شارح العقيدة الطحاوية بعد إيراد هذه الآية الكريمة: «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لابد وأن يكون خالقًا فاعلاً، يوصل إلى عباده النفع، ويدفع عنهم الضر؛ فلو كان معه - سبحانه - إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه، وذهب بذلك

الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه؛ إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أول خلقه دليل على أن مدبره إله واحد، وملك وواحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه»[1].

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء ٢٢].

غير أن هذه الآية الأخيرة ليست في بيان توحيد الربوبية - كما ظن كثير من المتكلمين من الأشعرية وغيرهم - وإنما هي في توحيد الإلهية.

فإنه - سبحانه - أخبر: أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل أربابٌ. وأيضًا فإن هذا فساد بعد الوجود. والمعنى: لو كان فيهما وهما موجودتان،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٨٥ - ٨٦ .

آلهة سواه لفسدتا، ولو كانت في توحيد الربوبية لقال: لم توجدا.

فالآية إنما دلت على أنه: لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون الإله إلا واحدًا، وإن فساد السماوات والأرض واختلال أحوالهما يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة. فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، وإنما هو بالعدل وبه قامت السماوات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد.

والمتكلمون يعتمدون في إثبات توحيد الربوبية على دليل يسمونه دليل التمانع، ويزعمون أنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء٢٢]، مع أن الآية ـ كما علمنا ـ في توحيد الإلهية.

وخلاصة هذا الدليل كما جاء في كتبهم: أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما، مثل: أن يريد أحدهما تحريك جسم ويريد الآخر تسكينه، فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما.

والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع يستلزم ـ أيضًا ـ عجز كل منهما والعاجز لا يصلح إلـٰها[1].

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٠٥)، وشرح قصيدة ابن القيم ص ٣٦٦ .

وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر وهو الفرض الثاني، كان هذا الذي حصل مراده هو الإله القادر، وكان الآخر عاجزًا لا يصلح للإلهية.

وهذا الدليل وإن كان صحيحًا في ذاته مثبتًا للمطلوب، إلا أن الدليل الذي قررناه أخذًا من الآية الكريمة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]، أقوى منه وأقرب إلى الواقع الملموس فإنه يدل على أن الاتفاق بين الآلهة مستحيل، وانه لن يكون منهم إلا أحد أمرين:

إما ذهاب كلاً منهم بما خلق حال عجز كلاٍ منهما عن قهر الآخرين.

وإما علو بعضهم على بعض حال ظهور أحدهم وتفوقه في القدرة على غيره.

إن من أبرز الأدلة المثبتة لتوحيد الإلـٰهية ما يسوقه القرآن من مظاهر الربوبية المطلقة التي تتمثل في انفراده ـ تعالى ـ بخلق الأشياء جميعًا، وتدبير الأمر كله بحيث لا يكون لأحد معه شركة أصلاً، لا في خلق شيء ولا في تدبير أمر، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

إن حقيقة توحيد الإلـٰهية مختصة به ـ سبحانه ـ لا يشاركه فيها أحد، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا

بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وكما قال جل شأنه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] .

وأما حقيقته في القصد والطلب فهو أن لا يقصد المرء بشيء من عبادته إلا وجه الله ـ عز وجل ـ وأن يخلص له النية في جميع أقواله وأفعاله، وأن لا يشرك معه أحدًا من خلقه فيما تعبده به.

وهذا القسم من توحيد الإلهية هو معظم ما يقع فيه النزاع بين أهل الحق، وبين خصومهم من القبوريين، والصوفية، والشيعة وغيرهم. والسبب في ذلك هو جهل هذه الطوائف المبتدعة الشركية بمفهوم العبادة التي لا تنبغي إلا لله، وجهلهم ـ كذلك ـ بإفراد العبادات التي تدخل تحت هذا المفهوم، فتراهم يفعلون كثيرًا منها لغير الله دون أن يفطنوا إلى ما في ذلك من مزلق الشرك الأكبر، والخروج عن حظيرة التوحيد.

* * *

العبادة

العبادة: اسم جامع لكل ما تعبد الله به عباده، مما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة التي شرع لهم أن يتقربوا بها إليه ويخصوه وحده بها.

وإفراد العبادة التي تندرج تحت هذا المعنىٰ الكلي كثيرة، ولكن يمكن مع ذلك ضبطها بتقسيمها إلىٰ أربعة أقسام أولية: هي العبادات القلبية والقولية والبدنية والمالية.

العبادات القلبية

العبادات القلبية: هي العبادات المتعلقة بالقلب والتي تعتبر أساسًا لما سواها من العبادات. فأهم هذه العبادات وأولها العبادة بالحب، وهو أن يحب العبد ربه حبًا يملأ أقطار نفسه، ويملك شغاف قلبه، بحيث لا يكون أحد من الخلق أحب إليه من ربه، بل ولا مساويًا له في الحب، فلا يحب مع الله غيره لأن هذه المعية تفهم الشركة والمساواة، ولكنه يحبه في الله ولله، كما قال الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار)[١].

---

(١) البخاري ح (١٦)، ومسلم ح (٤٣).

وقد نعىٰ الله علىٰ المشركين أنهم يحبون آلهتهم حبًا مساويًا لحبهم لله فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن علامات حب العبد لربه ـ جل وعلا ـ أن يعظم أمره ونهيه، وأن يكون ما يحبه الله ويرضاه آثر لديه من كل ما يحبه هو ويهواه، من مال وولد وأهل وعشيرة ومسكن وتجارة، بل ومن نفسه التي بين جنبيه فهو يجود بها لله عند الاقتضاء، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال متوعدًا المتقاعسين عن الهجرة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

ومن علاماته كذلك الغيرة علىٰ دين الله ـ عز وجل ـ بحيث يفرح بطاعة الله، ويحزن قلبه ويغضب إذا انتهكت حرمات الله وارتكبت معاصيه، لعلمه بأنها مكروهة لله؛ ومن شأن المحب أن يكره وقوع ما يكرهه محبوبه.

ومنها: أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا من والىٰ الله، ولا يعادي إلا من عادىٰ الله، فإن من أحب أحدًا فإنه يحب كل من يتصل به ويواليه، ويبغض كل من يشنأه ويعاديه.

ومحال أن يكون حب العبد لربه صادقًا إذا كان يبغض أحدًا ممن يعلم أن الله ـ عز وجل ـ يحبهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين أو كان يحب أحدًا ممن يعلم أن الله يبغضهم مم حادوا الله ورسوله، وعاندوا آياته، واستكبروا في أرضه بغير الحق من مثل: فرعون وقارون وهامان وأبي جهل وإبليس وغيرهم.

ولهذا جاهر الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه وقومه بالعداوة لما علم إصرارهم على كفرهم، وقال لهم هو ومن معه من المؤمنين ما حكاه الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] .

وبالجملة فالحب الصادق هو الذي يقتضي هذه الأمور كلها.

أما من يدعي حب الله ـ عز وجل ـ وهو يجترئ على معاصيه أو يقصر في فعل ما يحبه من الواجبات والمستحبات أو لا يشعر قلبه بالغيرة إذا انتهكت حرمات الله كهؤلاء الدجالين من الصوفية الذين يزعمون أنهم بلغوا من محبة الله منصبًا سقطت عنهم فيه التكاليف، وأبيحت لهم المحرمات، ويرضون عما يقع من الفواحش والمظالم بدعوى أنها واقعة بمشيئة الله، يضاهئون بهذا قول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، إلى غير ذلك مما لبس عليهم فيه الشيطان.

فهؤلاء لا يصدقون في دعوى الحب، فقد كذب الله قومًا ادعوا محبته، وهم لا يعملون بطاعته، ولا يتبعون رسوله، فقال سبحانه: ﴿قُلْ

إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١] .

يقـول شيخ الإسلام ابن تيمـية في رسالـة العبوديـة: (والعبادة أصل معـناه الذل ـ أيضًا ـ يقـال: طريق معبد، إذا كان مـذللاً قد وطئته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنىٰ الذل ومعنىٰ الحب، فهي تتضمن: غايـة الذل لله بغايـة المحبة له، فـإن آخر مراتب الحـب هو التتيم، وأوله العلاقة لتعلق القلـب بالمحبوب، ثـم الصبابة لانـصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم.

يقال: تيم الله، أي: عبد الله. فـالمتيم المعبّـد لمحبوبه، ومن خضع لإنسـان مع بغضه له لا يكـون عابدًا، ولـو أحب شيئًـا ولم يخضع له لم يكون عابدًا له، كما قد يحب ولـده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبـادة الله، بل يجب أن يكـون الله أحب إلـىٰ عبـده من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء. بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل مـن أحب لغير الله فمحبته فـاسدة، وما عظـم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً)[1].

فالحب وحده لا يحقق معنىٰ العبادة، بل لابد من كمال الذل والخوف والرجـاء. وفي ذلك يقول بعض الـسلف: (من عبد الله بـالحب وحده فهو زنديق، ومن عبـده بالخوف وحده فهـو حروري، ومن عبده بـالرجاء وحده

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٣)، والفتاوى الكبرى (٢/ ٣٦٣).

فهو مرجئ، والمؤمن هو الذي يجمع بين الحب والخوف والرجاء)[١].

وعلى ذلك فإن الحب أساس من أسس العبادة القلبية، وإنه وحده لا يكفي، بل لابد معه من كمال الذل لله وكمال الخوف منه، فلا تصح العبادة إلا إذا قامت على هذين الركنين، أعني كمال الحب وكمال الذل وكمال الخوف، وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون خشيته منه ـ ولا سيما ـ معرفته بما له من صفات الجبروت والقهر والبطش والانتقام.

فتمثل العبد لهذه الصفات، وتذكره لآيات الوعيد الواردة في القرآن الكريم مع شهوده لآفات عمله وعيوب نفسه يولد في نفسه الخشية من الله حتى لا يكون شيء أخوف منه عنده بل حتى يخافه وحده ولا يخاف غيره.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فجعل الخوف منه وحده علامة الإيمان وشرطه.

ومدح رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأنهم يخشونه ولا يخشون غيره، فقال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وجعل الخشية منه ـ سبحانه ـ مقصورة على أهل العلم به، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) انظر: التحفة العراقية ص ٧٥، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٨١، ٢٠٧).

وقال في شأن زكريا ـ عليه السلام ـ وأهله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

ولما فصل حالي الفريقين من أهل الجنة وأهل النار جعل الخوف من مقامه في مقدمة صفات أهل الجنة، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٩، ٢١].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨، ٤٩].

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنين: ٦٠]، سألت عائشة رسول الله ﷺ عن هؤلاء، هل هم الذين يزنون ويسرقون ...؟. قال لها: (لا يا ابنة الصديق. بل هم الذين

يصومون ويصلون ويتصدقون ويخشون ألا يقبل الله منهم)[1].

ويطول بنا القول إذا حاولنا استقصاء ما في الكتاب ـ العزيز ـ من الآيات الواردة في مدح الخوف والخائفين وما أعد الله لهم من الزلفىٰ والكرامة عنده.

وقد كان الرسول ﷺ المثل الأعلىٰ والقدوة في هذا الباب . فقد روت عنه عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه كان إذا هبت الريح أو رأىٰ مخيلة في السماء تغير لونه ودخل وخرج وبدا عليه القلق حتىٰ يعرف ذلك في وجهه[2].

ولما أخذ الفداء من أسرىٰ بدر بمشورة أبي بكر رضي الله عنه ونزلت الآيات تعاتبه علىٰ ذلك، أعني قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]، دخل عليه عمر رضي الله عنه فوجده هو وأبو بكر يبكيان، فقال: ما يبكيكما ؟. فإن وجدت بكاء بكيت، فقال له الرسول ﷺ: (لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، ولو نزل عذاب ما نجا منه إلا عمر لأنه لم ير أخذ الفداء)[3].

وكذلك كان السلف من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ وأئمة الهدىٰ من بعدهم، علىٰ سنة نبيهم ﷺ في شدة الخوف من الله، ودوام

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجة (٤١٩٨).

(٢) رواه مسلم (٨٩٩).

(٣) رواه أحمد (١/ ٣٠، ٣٢)، والبزار (١٩٦).

المراقبة له، وعدم الأمن من مكره فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ولعلك بعد هذا تدرك فساد ما يدعيه بعض ضلال الصوفية من أنهم: لا يعبدون الله خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنته ولكن يعبدونه لذاته. فهؤلاء لم يرضوا لأنفسهم حتى مقام الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل ذهب بهم الغرور الصوفي إلى أن يفتروا على الله الكذب، ويهملوا عبادة من أحب العبادات إلى الله ـ جل وعلا ـ وهي عبادته بالخوف والرهبة.

وليت شعري ما هذه الذات التي يعبدونها ؟. وهل هي ذات لا صفة لها؟. أم هي ذات متصفة بما يوجب حبها، والخوف منها، والرجاء فيها إلى غير ذلك مما يعرفه العالمون بالله ـ جل شأنه ـ لا هؤلاء الأدعياء الجاهلون الذين بلغت القحة وسوء الأدب، والجرأة على مقام الرب ـ جل شأنه ـ أن يصوروه في صورة الغانيات المعشوقات، وأن يسموه تسمية الأنثى من هند وليلى وسلمى، وأن يدعوا الاستغراق في شهود جماله، والتلذذ بطيب وصاله، وهم مع ذلك لا يرجون له وقارًا ولا عظمة، ولا يشعرون عند ذكره بخوف ولا رهبة، غرهم بالله الغرور، ومد لهم في حبل الغواية والفجور، فسبحان الله عما يصفون.

وإنما أطلنا الكلام مع هؤلاء لعلمنا أن كثيرًا من الناس يحسن الظن بهم، ويخلع عليهم ألقاب الولاية، ويسميهم بالواصلين والعارفين؛ مغترًا بما يظهرون من الوله والوجد، ومكابدة الأشواق، فيجري معهم فيما جروا فيه، فيضل سواء السبيل .

وإذا كان الخوف سوطًا يلهب العبد ويسوقه إلىٰ جادة الطريق بعنف، ويكسر من غرور نفسه، ويوقظه من رقاد الغفلة، وسفه الهوىٰ، فلابد أن يكون مصحوبًا بالأمل والرجاء في فضل الله ورحمته حتىٰ لا يفضي إلىٰ اليأس والقنوط، ولهذا تجيء دائمًا آيات البشارة مع آيات النذارة، هذه تحدو النفوس وتنشطها، وتلك تسوقها وتزجها.

وإذا كانت العبادة لا تصح إلا إذا قامت علىٰ هذه الدعامات الثلاث من الحب والخوف والرجاء، فإن هناك دعامة أخرىٰ تعتبر بحق لب العبادة وروحها، وبدونها تفقد العبادة معناها، وتكون كالجسد الميت الذي لا روح فيه، بل تكون أقرب إلىٰ النفاق والرياء.

وهذه الدعامة هي الإخلاص الذي يقوم علىٰ تمحيص النية لله ـ عز وجل ـ وتجريدها من كل شائبة هوىٰ أو نفع شخصي بحيث لا يريد بعمله إلا وجه الله تعالىٰ، ولا يكون الباعث له عليه إلا رغبته في ثوابه، وخوفه من عقابه، وشعوره بحق الله تعالىٰ عليه.

وإذا كان شرط العبادة الظاهر هو أن يصيب بها صاحبها السُّنة، وأن يجيء بها موافقة لما شرعه الله - عز وجل - علىٰ لسان رسوله ﷺ بلا زيادة ولا ابتداع فإن الإخلاص هو شرطها الباطن، بل هو قطب رحاها الذي به يثقل ميزانها أو يطيش.

ولهذا جاءت الآيات القرآنية تأمر بالإخلاص، وتنوه بشأنه، وتحذر مما ينافيه من الرياء والنفاق، وتتوعد عليه بحبوط الأعمال وسوء المآل.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ

نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٧].

وقال جل شأنه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وقد ورد عن ابن عباس وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦]، إنها نزلت في أهل الرياء، يعطون أجر حسناتهم في الدنيا، ولا ثواب لهم عليها في الآخرة لحبوطها بالرياء[١].

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**)[٢].

وروى أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: (**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟. قلنا: بلى، قال:**

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

الشرك الخفي، يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر الناس إليه)[1].

ومن العبادات القلبية بل من أجلها وأعظمها، اليقين: وهو سكون النفس، وطمأنينتها بما حصل لها من العلم الذي لا يحول ولا يتغير ولا ينسخه شك أو شبهة، مأخوذ من يقن الماء إذا سكن.

وقد مدح الله الموقنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وميزهم بحسن النظر والاعتبار، فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٢٠].

وجعل لهم الإمامة في الدين، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [السجدة: ٢٤].

فأشار بالصبر إلى كمال القوة العملية، وباليقين إلى كمال القوة العلمية، فمن كملت فيه هاتان القوتان فقد ترشح لمنصب الإمامة الخطير.

ومنها التوكل: وحقيقته ثقة العبد بكفاية الله ـ عز وجل ـ وحسن تدبيره، وعدم وقوفه مع الأسباب وتعلقه بها، وإن كان ينبغي ألا يهملها أو يقصر فيها . فإن التوكل لا ينافي الأخذ في الأسباب المقدورة للعبد، بل لا

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجة (٤٢٠٤). قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٣٧): إسناده حسن.

يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو تواكل وعجز وبطالة يأباها الدين.

والتوكل من أحب العبادات إلىٰ الله، وقد مدح الله المتوكلين عليه، وأخبر أنه حسبهم وكافيهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق:٣].

والحسب: الكافي.

وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة:١٠].

وجعله علامة إيمان العبد وحسن إسلامه، فقال إخبارًا عن موسىٰ عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

وجعله شقيق العبادة ونصف الدين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣].

وقال تعالىٰ في أم الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

والاستعانة: التوكل.

وقد أخبر النبي ﷺ: (أن سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ولما سئل عنهم قال: هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون

ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)[١].

ومنها الإنابة: وهي الرجوع إلىٰ الله ـ عز وجل ـ بالتوبة بعد الحوبة، وبالذكر بعد الغفلة، وبالشكر عند النعمة، وبالتسليم عند المصيبة. وبالجملة فهي فرار العبد إلىٰ مولاه، والتجاؤه إليه ـ كما يفر الطفل إلىٰ أمه ـ معتقدًا أن لا ملجأ له من الله إلا إليه، ومتوددًا إلىٰ الله بحسن الإقبال عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ [الروم:٣١].

وقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [الزمر:٥٤].

ومنها الإخبات والاستكانة: وهو تواضع العبد لربه، وشعوره بضعفه وحقارته أمام جلال الله وسطوته وعظمته وهيبته.

ومنها دوام مراقبته لله ـ عز وجل ـ وأن يعلم أن الله معه حيث كان، وأنه لا يقول من قول ولا يعمل من عمل إلا كان الله شهيدًا عليه حين يفيض فيه، فيعبد الله كأنه يراه، ويستحي منه أن يراه مقصرًا في شيء مما أمره به، أو مقترفًا لشيء مما نهاه عنه، والحياء خير كله، وهو شعبة من الإيمان.

وبالجملة فالعبادات القلبية هي كل ما يتعلق بالقلب من معانٍ وأحوال أمر الله بها وتعبد عباده بها، وأثنىٰ علىٰ المتصفين بها في كتابه.

---

(١) رواه البخاري (٥٣٧٨، ٦١٧٥)، ومسلم (٢١٨).

فهذه العبادات هي حق الله - عز وجل - على عباده فلا يجوز أن يصرف العبد شيئًا منها لغير الله مهما كان ذلك الغير، أو يجعل له مع الله شركة فيها؛ فيحبه مثلا كما يحب الله، أو يخافه كما يخاف الله، أو يعظمه كما يعظم الله، وإلا وقع في حمأة الشرك الذي لا يغفره الله أبدًا.

العبادات القولية

العبادات القولية: هي التي تناط العبادة فيها بقول اللسان مقارنًا للإرادة الصحيحة والنية الخالصة التي هي شرط في العبادات كلها.

والعبادات المتعلقة باللسان - فوق أنها كثيرة جدًا - تعتبر مزلقًا خطيرًا من مزالق الشرك لكثرة ما يقع فيها من الزلل والانحراف، بدعاء غير الله، أو استغاثته، أو الحلف به، أو الغلو في مدحه، بما يرفعه عن درجة المخلوقين، أو سؤاله المدد والبركة على نحو ما يفعله القبوريون عند الأضرحة التي يعكفون عليها يبتغون عندها الزلفى، ويقدمون لها كل أنواع الاسترضاء.

ولهذا رأيت نظرًا لخطورة الموضوع وأهميته القصوى أن أتناول بالتفصيل كل واحدة من هذه العبادات اللسانية، وأن أبين ما وقع فيها من زيغ وانحراف بيانًا يستبين به سبيل الحق والإنصاف: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢].

أولاً: الذكر: وهو في الأصل استحضار المذكور - سبحانه وتعالى - في القلب ببعض ما له من الأسماء والصفات مع التأمل في معانيها، والتدبر لآثارها، وتأثر القلب بها.

وذلك لأن الذكر من التذكر الذي هو ضد النسيان والغفلة.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف:٢٠٥].

وقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

فأنت إذا استحضرت الله سبحانه - في نفسك - باسم الرحمن - مثلاً - وتأملت معناه، وهو أنه ذو الرحمة التي وسعت كل شيء، وبلغت حيث بلغ عمله، ثم استجليت مظاهر هذه الرحمة في نفسك، مما أودع الله فيك من القوى والحواس والأعضاء والآلات، وما ميزك به من موهبة العقل والتفكير التي صرت بها خليفة في أرض الله تعمرها وتستخرج منافعها وتدبر شئونها.

واستجليت مظاهرها - كذلك - فيما حولك مما جعل الله - سبحانه - في السماء من شمس وقمر ونجوم وأبراج سخرها وخيرات، وما بثه على ظهرها من صنوف الحيوان والنباتات، وكيف بسطها لك، وجعلها ذلولاً، وثبتها بالجبال، وأنزل عليها من السماء ماءً فأجراه أنهارًا وسلكه ينابيع، وجعله مادة الحياة لكل ما على ظهرها من حيوان ونبات، ثم ذكرت - كذلك - أن هذه الرحمة التي شملت في الدنيا بر الناس و فاجرهم، وستكون خاصة بالمتقين يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦].

أقول: إذا أنت فعلت ذلك ـ كله ـ كنت قد ذكرت الله باسمه الرحمن الدال على صفة الرحمة، ولو لم ينطق به لسانك.

وكذلك إذا استحضرت ربك في نفسك باسمه العظيم، الدال على صفة العظمة التي تتضاءل دونها كل العظمات، وذكرت أن هذا الكون كله من عرشه إلى فرشه على ترامي أبعاده واتساع أقطاره، وما يحوي في فضائه الواسع من أجرام هائلة، لا يعدو أن يكون بين يدي خالقه ومبدعه كبندقة في يدك، أدركت سر عظمته سبحانه، وأنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى اكتناهها والإحاطة بها.

ويكفيك أن تعتبر في بعض مخلوقاته مثل العرش والكرسي، فكرسيه قد وسع السماوات والأرض بحيث تكون في جوفه كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي في العرش هو أيضًا كحلقة ملقاة في فلاة[1].

فإذا بلغت بعض مخلوقاته من الاتساع والعظمة هذا الحد الذي يبهر العقل ويحير الفكر، فما ظنك بعظمة خالقها ؟!. إنها تكون ولا شك عظمة تفنى عندها كل عظمة وتذوب.

وهكذا إذا استحضرته سبحانه باسمه العلي، وذكرت هذا العلو المطلق، وهو علو القدر والشرف والمجد والسيادة والكمال والعظمة، وهو علو القهر والقدرة والعزة والغلبة والانتقام والبطش بحيث لا يكون

---

(١) الطبرني في تفسيره (٣/ ١٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧، ٦٣٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٢).

للفظ العلو من معنىٰ إلا هو ثابت له ـ سبحانه ـ من كل وجه، وإن رغم أنف النفاة المبطلين.

وبالجملة فمهما استحضرته تعالىٰ في نفسك باسم من أسمائه وتأملت معنىٰ هذا الاسم، وما يدل عليه من صفة، ونظرت إلىٰ آثار تلك الصفة في نفسك وفي غيرك، فقد ذكرت الله وعبدته بهذا الاسم، ولو لم يجر علىٰ لسانك.

وهذا الذكر النفسي هو من قبيل عبادات القلب التي سبق الكلام عليها . فلا شأن لنا به هنا، وإنما الذي نريد أن نتكلم عليه، هو الذكر الذي يكون فيه اللسان مترجمًا عما في القلب وموافقًا له. وهذا أكمل أحوال الذكر؛ فإن اجتماع القلب واللسان مما يقوي المعنىٰ ويزيده جلاء، وفيه من التعبد أكثر مما لو انفرد القلب وحده.

وإذا عرف أن وظيفة اللسان في الذكر ليست إلا الترجمة عما في القلب، تكون أنواع الذكر باللسان بمقدار ما يتسع له القلب من معاني أسماء الله تعالىٰ وصفاته .

فقولك: (سبحان الله) ذكر، لأنها تعبير عما يعتقده القلب من تنزهه سبحانه وتعالىٰ عن كل صفة نقص وعيب، وعن سمة الحدوث والاحتياج، فيدخل في ذلك تنزهه عن كل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسول الله ﷺ من الند والشريك، والصاحبة والولد، والشفيع والظهير، والسِّنة والنوم، والضلال والنسيان، والعجز والجهل، والظلم والسفه، إلىٰ غير ذلك مما لا يليق بذاته المقدسة.

وقولك: (الحمد لله) ذكر له ـ جل شأنه ـ بما لـه من صفات الكمال كلها، فيتناول فضله ورحمته وجوده وإحسانه ولطفه وامتنانه، وعفوه وحلمه وستره ومغفرته وهدايته للخلق بإنزال الكتب والشرائع، وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويتناول كل شئون ربوبيته من الخلق والرزق، والتدبير والملك مما لا تستطيع العقول حصره، فله الحمد في الأولىٰ والآخرة.

وقولك: (لا إله إلا الله) أفضل الذكر، لأنها براءة من كل ما عبد من دون الله، وإثبات وصف الإلهية له وحده، وإذا عرف أن الله ما خلق الخلق إلا ليعبدوه، وكانت العبادة لا تصح مع الإشراك، كانت الكلمة الدالة علىٰ إخلاص العبادة لله أعظم الكلام، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)[1].

فكلمة: (لا إله إلا الله) عليها يدور أمر الإسلام كله، فهي منه قطب الرحىٰ، وأساس البناء، ولهذا كان من قالها صادقًا من قلبه، أسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامة، ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة.

وكذلك إذا ذكرت ذنبك وإساءتك وتفريطك في جنب الله،

---

(١) رواه مالك (٥٠٠، ٩٤٥) عن عبد الله بن كريز.

ورواه الترمذي (٣٥٨٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: غريب من هذا الوجه.

وتعديك لحدوده، وانتهاكك لحرماته فقلت: أستغفر الله العظيم، كان هذا ذكرًا من أحب الأذكار إلىٰ الله، ويجلو صدأ القلب، ويذهب غضب الرب، ويستنزل خيره ورحمته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

والله تعالىٰ يفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أشد الفرح، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وجعل التوبة والاستغفار شفاء من الذنوب والأوزار.

وقراءتك للقرآن الذي هو كلام الله تعالىٰ ووحيه وتنزيله من أفضل الذكر، فلا شيء أحب إلىٰ الله، ولا أقرب إليه زلفىٰ من تلاوة كتابه، مع التفقه والتدبر والخشوع والخشية، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

وفي الحديث: (ما عبد الله بشيء أحب إليه مما خرج منه)[١].

يعني: القرآن الكريم.

وفي الحديث الآخر: (من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته

---

(١) رواه أبو نعيم (٩/ ٢١٧) بنحوه، والحاكم (١/ ٧٤١)، وأبو داود في المراسيل (٥٣٨).

أفضل ما أعطي السائلين)[1].

وبالجملة فكل ما جرى على اللسان مما فيه ثناء على الله، ودعاء له باسم من أسمائه الواردة على لسان الشرع مع التضرع والتذلل والخيفة والمخافتة فهو ذكر لله؛ يعد صاحبه من الذاكرين الحائزين لفضيلة الذكر.

وأما هؤلاء الذين اتخذوا دينهم هزوًا ولعبًا فيذكرون الله بما لم يسم به نفسه، من نحو قولهم: (آه، وهو) ويلحدون في أسمائه بالتحريف لها عن أصل وضعها، فيقصرون الممدود ويمدون المقصور، ويرفعون بذلك أصواتهم في جرأة وقحة، ولا يذكرونه إلا مع هز الرؤوس والأكتاف، ورقص البطون والأرداف، وإلا على صفير الناي وإنشاد النساء، ويجتمعون على الذكر حلقات يتوسطهم شيطان يصفق لهم، وهم يرقصون على إيقاع تصفيقه، مجردة قلوبهم من الخشوع والخشية، ممتلئة من كل هوى خبيث وفجور داعر.

أقول: إن الذكر على هذه الهيئة المنكرة التي يتبرأ منها دين الإسلام ليس بدعة فحسب بل هو جريمة في حق الدين والوطن - أيضًا - فما ينبغي للدولة التي تحترم نفسها أن تسمح لنفر من أبنائها بارتكاب مثل هذا الهراء الذي يسيء إليها، ويجعلها مثار الضحك والسخرية من جميع الشعوب، فهذا ليس هو الذكر الذي شرعه الله - جل شأنه - فإنه لم يرد في الكتاب ولا

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٢٦) وقال: حسن غريب.

السُّنة أمر به ولا فيهما ما يـدل على شرعيته، ولا نقل عن أحد ممن يعتد به من سلف هذه الأمة، أنه ذكر الله ـ عز وجل ـ بمثل ذلك؛ فإن الاسم المفرد المجرد، لـيس كلامًا تامًا ولا جـملة مفيدة، ولو تلـفظ به كافر لم تحصل له النسبة إلى الإسلام بمجرده، حتى يقول: (لا إله إلا الله).

فهو لا يفيد الإيمان باتفاق، ولا ورد الأمر به في شيء من العبادات.

يقـول شيخ الإسلام ابن تـيميـة ـ رحمه الله ـ في رسـالته الـمسـماة بالعبودية، وهو بحث نفيس جدًا، ما ملخصه:

(وأمـا الاسم المـفرد مظهـرًا أو مضمـرًا فليس بكلام تـام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمـان ولا كفر ولا أمر ولا نهي، ولـم يذكر ذلك أحد من سلف الأمـة، ولا شرع ذلك رسـول الله ﷺ، ولا يعطي القلـب بنفسه معرفـة مفيدة، ولا حالاً نافعًـا، وإنما يعطيه قصـورًا مطلقًا لا يحكم عليه بنفي ولا إثبـات، فإن لـم يقترن به من معـرفة القلب وحاله مـا يفيد بنفسه وإلا لـم يكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما يكون الفائدة حـاصلة بغيره، والذكر بالاسـم المفرد المضمر أبعد عن السُّنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلـى إضلال الشيطان، فإن من قال: «يا هو، يـا هو أو هـو هو» ونحـو ذلك، لم يكـن الضمير عـائدًا إلا إلـى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي، وقد يضل.

ثم كثيرًا ما يذكـر عن بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل (الله) لـقوله سبحـانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، ويظن بـأن الله أمر نـبيه بأن يقول الاسم الـمفرد، وهذا غلـط باتفاق أهل العلـم، فإن قوله: «قل الله»،

معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وهذا جواب لقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١].

أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، رد بذلك قول من قال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس:١٥].

ثم قال: «قل الله»، أي: أنزله. ثم ذر هؤلاء المكذبين في خوضهم يلعبون.

والله تعالى لم يأمر أحدًا بذكر اسم مفرد، ولا شرع للمسلمين اسمًا مفردًا مجردًا. ونظير من اقتصر على الاسم المفرد، ما يذكر من أن بعض الأعراب مر بمؤذن، يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله «بالنصب»، فقال: ماذا يقول هذا ؟: هذا هو الاسم فأين الخبر عنه ؟

وما في القرآن من قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل:٨]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى:١]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى:١٤،١٥]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة:٥٢]، قال النبي ﷺ: **(اجعلوها في ركوعكم)**.

ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، قال النبي ﷺ: (اجعلوها في سجودكم)[١].

فشرع لهم النبي ﷺ أن يقولوا في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى فتسبيح اسم ربه الأعلى، وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد. كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[٢].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[٣].

وكذلك ما شرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى، إنما هو بالجملة التامة.

كقول المؤذن: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

وقول المصلي: الله أكبر، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى،

---

(١) رواه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، والدارمي (١٣٠٥)، وأحمد (٤/ ١٥٥).

(٢) أحمد (٥/ ١١) بنحوه عن سمرة. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٨): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٣، ٦٣٠٤)، ومسلم (٢٦٩٤).

سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، التحيات لله.

وقول الملبي: لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك، وأمثال ذلك.

فجميع ما شرعه الله من الذكر، إنما هو كلام تام لا اسم مفرد، لا مظهر ولا مضمر، وهذا هو الذي يسمىٰ في اللغة كلمة، كقوله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن)[1]، وقوله: (أفضل كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[2]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥] .

والمقصود هنا أن المشروع في ذكر الله هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمىٰ بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل له الثواب والأجر، والقرب إلىٰ الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية.

وأما الاقتصار علىٰ الاسم الفرد مظهرًا أو مضمرًا فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلىٰ أنواع البدع والضلالات، وذريعة إلىٰ تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد)[3] .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٣، ٦٣٠٤)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) البخاري (٣٨٤١، ٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٦- ٢٣٣).

فهل يسمع هذا الكلام هؤلاء الـذين شرعوا لأنفسهم من الذكر ما لـم يـأذن به الله، وعبدوا الله بـالهوىٰ والبـدعة، وصـدق عليهم إبلـيس ظنه فأطاعوه فيما زين لهم من أعمال حمقاء، وحركات رعناء حسبوها قربات وظـنوهـا طاعـات: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩].

***

الدعاء

الدعاء من أهم العبادات القولية التي لها أكبر شأن في الإسلام، بل وفي الرسالات الإلـٰهية ـ كلها ـ وهو يرد في القرآن علىٰ نوعين: دعاء الثناء والعبادة، ودعاء المسألة والطلب.

وتارة يراد به مجموعهما، والنوعان متلازمان، فإن دعاء المسألة معناه: طلب ما ينفع الداعي أو طلب كشف ما يضره أو دفعه، وذلك ممن يملك النفع والضر، فإنه هو المعبود حقًا، والمعبود لابد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله - تعالىٰ - علىٰ من عبد من دونه ما لا يملك له ضرًا ولا نفعًا، وذلك كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس:١٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس:١٠٦].

وهو في القرآن كثير جدًا.

وإذا تأملنا الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الدعاء وجدناه في بعض الآيات يكون أظهر في أحد المعنيين منه في الآخر، فمثلاً قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ٦٠﴾ [غافر:٦٠]، أظهر في دعاء العبادة ولهذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر:٦٠].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (**الدعاء هو العبادة**)[1].

وكذلك كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لآلهتهم وأصنامهم، فالمراد به دعاء العبادة، المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر.

وأما ما هو أظهر في دعاء المسألة والطلب، فمثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

وقوله - سبحانه - حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝﴾ [مريم: ٣، ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٩٠].

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝﴾ [البقرة ١٨٦]، فهو متضمن

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧). قال الترمذي: حسن صحيح.

للنوعين جميعًا، وبكل منهما فسرت الآية، فقيل: معناه أعطيه إذا سألني، وقيل معناه: أثيبه إذا عبدني.

والذي يهمنا الكلام عليه هنا هو دعاء المسألة والطلب، لأنه أعظم ما وقع فيه النزاع بين أهل الحق وبين خصومهم ممن يدعون غير الله ـ عز وجل ـ ويسألونه ما لا يقدر عليه إلا الله، أو يجعلون بين الله وبينهم واسطة في الدعاء، يعتقدون أنها ترفع حوائجهم إلى الله، وتشفع لهم عنده في قبول دعائهم، وقضاء حوائجهم، وبدون تلك الواسطة لا يسمع لهم دعاء، ولا تقضى لهم حاجة.

فإذا علمنا أن دعاء المسألة والطلب نوع من العبادة بل هو مخ العبادة، لأنه لا يدعى ويسأل إلا من كان مالكًا للنفع والضر، ومن كان مالكًا للنفع والضر هو الذي يستحق أن يعبد، علمنا أن دعاء غير الله ـ تعالى ـ كما يفعله كثير من الناس عند أضرحة المشايخ من دعائهم لأصحابها واستغاثتهم بهم هو شرك صريح وتوجه بالدعاء الذي هو عبادة إلى غير الله.

وأما من دعا الله ـ عز وجل ـ بأحد من خلقه، بمعنى أنه جعله شفيعًا إلى الله في أن يقبل دعاءه أو يقضي حاجته، معتقدًا أنه لولا تلك الشفاعة لم يسمع دعاؤه ولم تقض حاجته، وأن لتلك الواسطة تأثيرًا غيبيًا في جلب الخير ودفع الضر، فهذا ـ أيضًا ـ شرك يجب أن يستتاب صاحبه منه، فإنه قد جعل هذا الشفيع شريكًا مع الله في قضاء حاجاته وكشف كرباته.

كما أنـه شبه الله ـ عز وجل ـ بخلقه، وجعلـه كواحد من ملـوك الدنيا محتاجًا إلـى أعوان وظهراء يرفعون إليه حوائج عباده، ويعرفونه بما خفي عليه من أحوالهم، ويقدرون على التأثير في إرادته فينقلونه بشفاعتهم من حال الغضب والقسوة إلى حال الرضى والرحمة .

وهو يستجيـب لهؤلاء الشفعاء لأن لهم عنده من الجاه والحرمة ما لا يقـدر معه على رد شفـاعتهم لحـاجته إليهم في تـدبير مملكته ومقـاومة أعدائه، إلى غير ذلك من المعاني التي يجب تنزيه الله تعالى عنها.

ولهذا أنكر القرآن على المشركين اتخاذهم الوسائط والشفعاء بينهم وبين الله تعالى، واعتبر ذلك شـركًا صريحًا لا يقـل في شناعته عن دعاء غير الله ـ عـز وجل ـ قـال تعـالـى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس:١٨].

وقـال تعـالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٣].

فجمع لهم في هـذه الآية بين أقبح وصفين، وهما الكـذب والكفر، وبين أن ذلك مانع من هداية الله لهم.

وإذا كـان هذا هـو حكم الله في هـؤلاء المـشركـين الذيـن ما كـانوا يعبدون هـذه الأصنام لـذاتها، ولا كانـوا يعتقدون أنهـا تملك لهم النفع

والضر، وإنما كانوا يتقربون بها إلى الله ويستشفعون بها عليه - جل شأنه - لاعتقادهم أنها أقرب إلى الله منهم وأرجى إليه شفاعة.

فماذا يكون حكم الله في هؤلاء العاكفين على هذه الأضرحة يوسعونها لثما، ويتمسحون بها تبركًا، ويناجونها في ذله وضراعة، ويسألونها كل حوائجهم، ملتمسين رضاها وبركاتها، خائفين أشد الخوف من سطوها ونقمتها، ومتملقيها بأنواع القرابين والنذور ؟

وإذا سئل أحدهم أن يحلف بواحد منها وكان كاذبًا تحاشى ذلك وخشي عاقبته، وإذا طلب منه الحلف بالله - عز وجل - فرح وجاءه الفرج، وبذل ذلك لمن سأله بذل السماح. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإذا كان الدعاء من بين العبادات بهذه المنزلة من الأهمية والاعتبار، حتى جعله الرسول ﷺ هو العبادة أو مخها[1] ، فلا غرو أن يحتاط له الإسلام حتى يبقى خالصًا لله - وحده - بعيدًا عن شوائب الوثنية والإشراك.

فجاءت نصوص الكتاب الكريم والسُّنة المطهرة مصرحة بوجوب الإخلاص في الدعاء، وناعية على من يدعون مع الله غيره إفكهم وضلالهم، وضاربة الأمثال المبينة لحالهم الشنيعة، والمنفرة لكل ذي

(١) الصحيح بلفظ: الدعاء هو العبادة. سبق تخريجه ص٨٢ .
أما لفظ: الدعاء مخ العبادة: فرواه الترمذي (٣٣٧١)، وقال: غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

لب من التردي في تلك الهوة السحيقة.

وإذا كنا لا نستطيع أن نستوعب هذه النصوص الكثيرة من الكتاب والسُّنة، فلا أقل من أن نذكر طرفًا منها ليكون أنموذجًا لبقيتها، وليكون حجة دامغة لهؤلاء المنحرفين الذين استجراهم الشيطان ولبس عليهم دينهم، وخدعهم عن أنفسهم حتىٰ رضوا لها الهوان والضعة والوقوف في ذله واستكانة بين يدي أجداث من الخشب والحديد، يناجونها مناجاة الحي للحي، ويدعونها في كل ما يهمهم من الأمور، ويعولون عليها التعويل كله. حتىٰ ربما تركوا الأخذ في الأسباب التي وضعها الله عز وجل، اتكالاً علىٰ معونة هذه الأجداث وتدبيرها.

يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٨].

ففي هذه الآية الكريمة يخبر الله ـ سبحانه ـ عمن يدعوهم الناس من الموتىٰ المقبورين، وصورهم بأنهم ليسوا إلا عبادًا لله أمثال الداعين لهم، وأنهم مهما بالغوا في دعائهم فلن يستجيبوا لهم بشيء إذ كانوا عن دعائهم غافلين.

ثم يبين ـ سبحانه ـ ما صاروا إليه من فقد الأعضاء والآلات التي كانوا يملكون بها الفعل، لا أرجل تمشي، ولا أيد تبطش، ولا أعينا تبصر، ولا آذانًا تسمع.

ثم يتهكم بهم فيأمرهم أن يدعوها لكي تظاهرهم في الانتقام والكيد لمن يشتمها ويحقرها بلا مهلة ولا تأخير.

ثم يعلنهم بالبراءة من هذه الآلهة الباطلة، وأنه لا يتخذ شيئًا منها وليًا يلوذ به ويتوكل عليه. وإنما وليه الحق هو الله الذي نزل الكتاب داعيًا إلى عبادته وتوحيده هو يتولى عباده الصالحين.

وكر على آلهتهم مرة أخرى، فبين أنها أعجز من أن تنصر من استنصر بها، بل ولا تستطيع نصر نفسها ممن أرادها بسوء وتحطيم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

ففي الآية نهي صريح عن دعاء غير الله مما لا يملك لداعيه نفعًا ولا ضرًا، وتسجيل الظلم العظيم على كل من فعل ذلك حتى ولو كان هو رسول الله المخصوص بغاية القرب والتكريم.

وفي الآية الثانية يبين ـ سبحانه ـ عدم جدوى هذا الدعاء، فإن الداعي لغير الله إما أن يطلب منه كشف ضر نزل به، أو إنزال ما يتمناه

من خير، ولا يكشف الضر إلا الله، ولا يصيب بالخير سواه، ولا يستطيع أحد أن يحبس فضله عمن يريد إصابته من خلقه.

فماذا بقي إذًا لهؤلاء الذين يدعوهم الناس من دون الله، وماذا عندهم مما يخاف أو يرجى حتى نهرع بالجموع إليهم طالبين مستغيثين.

ويقول جل شأنه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤].

فأخبر ـ سبحانه ـ عن نفسه بأن له وحده دعوة الحق، أي التي حققها صاحبها ولم يضيعها لأنه دعا من هو حقيق بالدعاء، ومن هو قادر على إجابته، بخلاف هؤلاء الذين يدعوهم الناس من دونه، فإن دعوتهم باطلة لم تقع موقعها، بل ضيعها صاحبها حين رجا غير مرجو، وأمل فيمن ليس أهلاً لتأميله، فحال داعيهم في عدم انتفاعه، وعدم استجابتهم له، كحال رجل اشتد به العطش فعمد إلى نهر ليشرب منه، ولكنه بدلاً من أن يتناول الماء بيديه ويوصله إلى فيه، اكتفى بأن بسط كفيه إلى الماء منتظرًا بلوغ الماء إلى فيه، وليس ببالغه أبدًا.

فكذلك هؤلاء أضاعوا دعاءهم حين توجهوا به إلى غير الله، فقصر بهم عن بلوغ ما طلبوا، كما قصرت حال هذا الباسط كفيه به أن ينال من الماء حاجته.

فما أروع هذا المثل القرآني، وما أجدر أن يتأمله هؤلاء الحيارى، لعلهم أن ينتهوا عما هم فيه من عمى وضلال.

ويقول عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠،٢١].

فبين سبحانه أن لا ينبغي أن يدعى إلا الخالق الحي لأنه هو الذي يسمع داعيه ويقدر على الاستجابة له، وليس ذلك إلا الله جل شأنه.

أما هذه الآلهة التي تدعى من دونه، فإنها لم تخلق شيئًا بل هي مخلوقة، وهم كذلك أموات لا حياة فيهم، ولا يدرون متى يكون قيامهم من قبورهم؟. فكيف يدعى من هو متصف بالعجز والغفلة، وهما من أشد الصفات منافاة لإجابة الدعاء؟.

وصدق الشاعر الذي يقول:

لقد أسمعت إذ ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

ويقول جل شأنه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾

[الإسراء: ٥٦،٥٧].

نزلت هذه الآية فيمن يدعو المسيح وأمه وعزيرًا والملائكة، كما روى عن بعض السلف، فقيل لهؤلاء: أن الذين زعمتموهم آلهة مع الله

مهما دعوتموهم فلن يملكوا إزالة الضر عنكم ولا تحويله، أي نقله عنكم إلىٰ غيركم، وأنهم عباد لله مثلكم، يطلبون القرب إليه بطاعته كما تطلبون، ويرجون رحمته كما ترجون، ويخافون عذابه كما تخافون، فكيف يليق أن يدعوا عبدًا ؟. وكيف يرجىٰ أو يخاف من هو راج وخائف؟. وكيف نمد اليد بالسؤال إلىٰ طالب محتاج ؟.

ويقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣].

فنفىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في هاتين الآيتين كل ما يمكن أن يتذرع به المشركون في دعائهم لغيره، فنفىٰ عنهم:

أولاً: ملكيتهم لأقل شيء وأحقره . وهم مقدار الذرة في السماوات أو في الأرض.

ثم نفىٰ عنهم: ثانيًا: أن يكون لأحدهم شركة مع الله في شيء منهما.

ثم نفىٰ عنهم: ثالثًا: أن يكون لله منهم ظهير يعاونه في الخلق أو التدبير.

ثم نفىٰ عنهم: رابعًا: أن يكون لهم عند الله شفاعة نافعة إلا بعد إذنه ورضاه.

فانظر كيف سدت هاتان الآيتان أبواب التعللات ـ كلها ـ في وجوه القبوريين، حتىٰ لم يبق لأحد عذر بعد هذا البلاغ المبين.

ولكن من يشأ الله يضلله، ومن يشأ يجعله علىٰ صراط مستقيم.

وإذا كانت آيات الكتاب العزيز قد تضافرت - هكذا - علىٰ وجوب الدعاء لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ والتوجه إليه وحده رغبة ورهبة، فقد جاءت السُّنة المطهرة بتأكيد ذلك المعنى وتشديد النكير علىٰ كل من يجعل لله ندًا، يتوجه إليه في دعائه، ويطلب منه ما لا يقدر عليه غيره. ومن ذلك الحديث المشهور، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنت خلف النبي ﷺ فقال لي يا غلام: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت علىٰ أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك طويت الصحف وجفت الأقلام)[1]».

وفي الصحيح: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم ؟. فقال: (أن تجعل لله ندا وهو خلقك)[2].

ومعنىٰ الند: المساوي الذي يجعل له من الحق في الدعاء والعبادة مثل ما لله عز وجل.

(١) الترمذي (٢٥١٦)، وهو في صحيح الجامع (٧٨٣٤).

(٢) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

وقد جاء فى حديث آخر: (سلوا الله في كل شيء حتى في شسع نعالكم وملح قدوركم، ومن لم يسأل الله يغضب عليه)[1].

وعلى الجملة: فالدعاء من أعظم العبادات القولية والقلبية التى يجب إخلاصها لله ـ جل ذكره ـ وهذا أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام، بل ومن كل دين بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه.

ولكن الشياطين تلبس على الناس فى هذه العبادة، وتزين لهم أن يتخذوا فيها الوسائط والشفعاء التى تقربهم من الله زلفى وترفع إليه أدعيتهم وحوائجهم.

ومن جملة تلبيسه عليهم ـ فى هذا الباب ـ أن يقول لهم: إنكم قد أسرفتم على أنفسكم في ارتكاب الذنوب والمعاصي التي أبعدتكم عن الله ـ عز وجل ـ وجعلت بينكم وبينه حجابًا غليظًا، فلا يعقل أن تفتح لكم أبواب السماء، ولا أن يستجاب لكم دعاء حتى تتوسلوا إلى الله فيه ببعض الصالحين من عباده!!!

وبذلك صرفهم عن ابتغاء الوسيلة إلى الله بما شرعه هو وجعله وسيلة مقبولة عنده لا ابتداع وسائل لم يأذن بها ولم ينزل بها من سلطان.

وينكشف ذلك التلبيس بأن اتخاذ الوسائط شرك، والشرك من أعظم الذنوب المبعدة عن الله ـ عز وجل ـ فإذا كان ما دون الشرك من الذنوب

---

(١) رواه بنحوه أبو يعلى (٤٥٦٠)، وابن السني (٣٥٥)، والبيهقي في الشعب (١١١٨) وقال: إسناده غير قوي. ورواه برقم (١١٢٠) مرسلا.

مـانعًا من إجـابة الدعـاء، كان الشـرك أولىٰ بذلك، وبهـذا أنكر الله علىٰ المشـركين قـولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقـولهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، قولاً من عند أنفسهم بلا حجة ولا دليل.

وأمـا ما يشغب به القبوريون ـ فى هـذا الباب ـ من آثار فلا يصح منها شيء اللهم إلا حديث استسقـاء عمر بالعباس ـ رضي الله عنهما ـ وقوله: «اللهم إنا كنـا نتوسـل إليك بنبينـا فتسقنـا، وإنا نتـوسل إليك الآن بعم نبينا فاسقنا فيسقون»[١].

علىٰ أن هـذا الحديث حجة عليهم لا لهـم، فإن عمر ﵁ لم يتوسل بـذات العباس وشخصه، وإنمـا توسل بدعـائه، فإن التوسـل بالذوات لو كـان جائزًا لـما عدل عـمر ﵁ ومن معه من الـمهاجريـن والأنصار عن التوسل برسول الله ﷺ إلىٰ التوسل بالعباس ﵁ مع أن ذات الرسول ﷺ أفضل قطعًا من ذات العباس ﵁ وذاته ميتًا كذاته حيًا، ولكن عمر ﵁ أدرك أن ما كان يـملكه الرسول ﷺ من الدعاء حـال حياته من الاستسقاء وغيره، قد بطل بموته.

فقدم ألصق الناس رحمًا به، وهـو عمه صنو أبيه، لينوب عنه في هذا المقام.

---

(١) رواه البخاري (١٠١٠)، (٣٧١٠).

وقد حُفظ من دعاء العباس ـ يومئذ ـ قوله: «اللَّهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة، وهذه نواصينا إليك بالذنوب، وأيدينا إليك بالتوبة».

ولا أطيل الكلام في هذا الموضوع أكثر من ذلك فإن الحق فيه أظهر من أن يخفىٰ. ومن أراد الوقوف علىٰ جلية الأمر فيه فليرجع إلىٰ ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وغيره، من علماء السُّنة الذين بسطوا القول في هذه المسألة[1].

غير أني سأنقل هنا ـ تتميمًا للفائدة ـ ملخصًا لما جاء في رسالة زيارة القبور لابن تيمية، من أحكام تتعلق بذلك الأمر عسىٰ أن يعتبر بها أولئك الذين يروجون لهذه الضلالة فيفيئوا إلىٰ الحق والهدىٰ ويتركوا سبل اللجاج والعناد.

قال رحمه الله: « وتفصيل القول أن مطلوب العبد إن كان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ـ تعالىٰ ـ مثل أن يطلب شفاء مرضاه من الآدميين أو البهائم، أو وفاء دينه من غير جهة معينة، أو عافية أهله وما به من بلاء الدنيا والآخرة، وانتصاره علىٰ عدوه، وهداية قلبه، وغفران ذنبه، أو دخوله الجنة، أو نجاته من النار، أو أن يتعلم العلم والقرآن، أو أن يصلح قلبه، ويحسن خلقه ويذكي نفسه، وأمثال ذلك .

---

(١) انظر علىٰ سبيل المثال: كتابه المفرد (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة).

فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تطلب إلا من الله ـ تعالىٰ ـ ولا يجوز أن يقال لملك ولا لنبي ولا لشيخ سواء كان حيًا أو ميتًا: اغفر ذنبي، ولا انصرني علىٰ عدوي، ولا اشفِ مريضي، ولا عافني أو عافِ أهلي أو دابتي وما أشبه ذلك، ومن سأل مخلوقًا كائنًا من كان فهو مشرك بربه».

وأما من يأتي إلىٰ قبر نبي أو صالح أو من يُعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح ويسأله ويستنجده، فهذه علىٰ ثلاث درجات:

أحدها: أن يسأله حاجة، مثل: أن يسأله أن يزيل مرضه أو مرض دوابه، أو يقضي دينه، أو ينتقم من عدوه، أو يعافي نفسه وأهله ودوابه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ـ عز وجل ـ فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل.

وإن قال: أنا أسأله لكونه أقرب إلىٰ الله مني ليشفع لي في هذه الأمور فإني أتوسل إلىٰ الله به، كما يتوسل إلىٰ السلطان وأعوانه، فإن هذا من أفعال المشركين والنصارىٰ الذين يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم، وذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

ثم يقال لهذا المشرك: أنت إذا دعوت غير الله فإن كنت تظن أنه أعلم بحالك وأقدر علىٰ عطاء سؤلك أو أرحم بك فهذا جهل وضلال وكفر، وإن كنت تعلم أن الله أعلم وأقدر وأرحم، فلم عدلت عن سؤاله إلىٰ سؤال غيره ؟

وإن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته، فهذا هو القسم الثاني.

ثانيهما: وهو ألا تطلب منه الفعل ولا تدعوه، ولكن تطلب أن يدعو لك، فهذا مشروع في الحي، وأما الميت من الصالحين والأنبياء وغيرهم فلم يُشرع لنا أن نقول: ادع لنا، ولا اسأل لنا ربك.

وأما ثالثهما: فهو أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان، أو بحرمة فلان عندك، أفعل بي كذا وكذا، فهذا يفعله كثير من الناس، ولكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء»(١).

وبعد: فهل آن لهذه الأمة أن تتخلص من تلك الوثنية المدمرة التي تتمثل في تلك الأقوال والأفعال المنكرة التي يرتكبها الناس عند أضرحة المشايخ من الاستغاثة بها، وطلب الحاجات منها، وتقبيل الأرض عندها، ووضع الخد عليها والتزامها، وغير ذلك مما رجع بنا إلى جاهلية شر من الجاهلية الأولى.

وفي ختام الحديث عن الدعاء أرى تتمة للفائدة أن أزيدك بصيرة في هذا الباب بأن أضع لك منهاجًا تلتزمه إذا أردت الدعاء، وأن أذكرك ببعض ما يجب أن تأخذ به نفسك حتى يكون دعاؤك صحيحًا مقبولاً مرجو الإجابة، إن شاء الله .

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٦٧ - ٨٣)، وزيارة القبور (ص٩ - ٣٨).

أولاً: إذا أردت أن تدعو الله بشيء من أمور آخرتك أو دنياك، فالبس ثوب الضراعة و الذلة، واستشعر الفقر والحاجة موقنًا أن الله وحده الذي يملك أمرك كله، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فتدعوه رغبًا ورهبًا، ولا تلتفت بقلبك إلى غيره ولو على سبيل الوسيلة، فلا وسيلة لله أنجح من إخلاص الدعاء له وإظهار الفقر والمسكنة بين يديه، كما لا وسيلة أحب إليه من أسمائه الحسني التي أمرنا أن ندعوه بها . فقدم بين يدي حاجتك ما يناسبها من هذه الأسماء التي تفتح لدعائك أبواب السماء.

ثانيًا: اجتهد في حفظ الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ وادع الله بها فإنها ما تركت خيرًا من خيرات الدنيا والآخرة إلا سألت الله إياه، ولا تركت من شر إلا استعاذت بالله منه. وإياك وهذه الأدعية البدعية التي تمتلئ بها أوراد الصوفية وكتبهم فإنها مليئة بالتوسلات الشركية.

ثالثًا: إياك وأكل الحرام فإنه مانع من إجابة الدعاء، واجتهد في تحري الحلال الطيب، فقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة:١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام

فأنى يستجاب لذلك)[١].

وروي عنه ﷺ أنه قال لسعد بن أبي وقاص حين قال له يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة: (أطب طعمتك ياسعد تجب دعوتك)[٢].

رابعًا: إياك والاعتداء في الدعاء فلا تجهر به كل الجهر، فقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري، أن النبي ﷺ حين سمع أصحابه يرفعون أصواتهم. قال: (ياأيها الناس: اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)[٣].

بل الأفضل أن يكون الدعاء سرًا على جهة المخافتة والمناجاة، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥].

وقال في شأن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣].

ومن الاعتداء في الدعاء - كذلك - أن تطيله أكثر مما ينبغي، فقد جاء في الحديث: (سيكون قوم يعتدون في الطهور والدعاء حسب أحدهم من

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٩٥). قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٩): رواه الطبراني في الصغير، وفيه من لم أعرفهم.

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٢، ٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

دعائه أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل)[(١)].

وقال - عليه السلام - لعائشة رضي الله عنها: (عليك بجوامع الدعاء، مثل: اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله، ما علمت منه وما لم أعلم)[(٢)].

ومن الاعتداء فيه أيضًا: أن تدعو الله بإثم أو قطيعة رحم، أو تسأله ما لا ينبغي لمثلك، كأن تسأله درجة الأنبياء في الجنة ونحو ذلك.

خامسًا: تحرّ بدعائك الأوقات التي ورد النص باستحباب الدعاء فيها، مثل أدبار الصلوات، وعند سماع الأذان، وفي المعركة عند اشتداد البأس، وعند نزول الغيث، وبين الأذان والإقامة، وفي أواخر الليل وقت السحر، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

وفي الحديث الصحيح: (ينزل ربنا - تبارك وتعالى - حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من داع فأستجيب له، هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له. وهكذا حتى مطلع الفجر)[(٣)].

---

(١) أبو داود (٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وأحمد (٤/ ٨٦).

(٢) نسبه في جامع العلوم والحكم ص ٤٥٣ لأبي بكر الأثرم. وانظر سنن الترمذي (٣٥٢١).

(٣) رواه البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨).

والدعاء في السجـود: فإنه أقرب ما يكون العـبد من ربه وهو ساجد. وكذلك ينبغي أن تتـوخى بدعائك الأماكن التي يـكثر فيها نزول الرحمة لأنها مواطن لعبادة الله وإقامة شعائر دينه.

***

الاستغاثة

الاستغاثة من العبادات القولية، ومعناها: طلب الغوث والنجدة لتفريج كرب وإزالة شدة. وهي لا تجوز إلا بالله - عز وجل - فيما لا يقدر عليه غيره، وأما ما يقدر عليه العباد فيجوز الاستغاثة بهم فيه إذا كانوا أحياء حاضرين، وقد جاء في الحديث الصحيح: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة)[1].

وقد ورد القرآن الكريم بالنوعين معًا:

فمن النوع الأول الذي لا تجوز الاستغاثة فيه إلا بالله، قوله - تعالى - مخاطبًا المؤمنين وممتنًا عليهم بالنصر يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾ [الأنفال:٩].

وكذلك قوله - تعالى - بصدد تقرير وحدانيته وإبطال الإلهية ما سواه مما لا يملك لعابديه كشف ضر ولا تحويله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [النمل:٦٢].

ومن النوع الثاني قوله - تعالى - في شأن كليمه موسى - عليه السلام - حين استغاثة الإسرائيلي لينصره على المصري: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٦٩٩).

غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص:١٥].

والفرق بين هذين النوعين من الاستغاثة يزيل كثيرًا من الإشكالات، فإن الاستغاثة كالسؤال، بل هي نوع منه فلا تجوز بالمخلوقين إلا فيما يقدرون عليه، كاستغاثة الغريق الذي أحاط به الموج بمن يملك إنقاذه، واستغاثة من تعرض له عدو وهو أقوىٰ منه بمن يملك دفعه عنه، واستغاثة أصحاب الدار بالشرطة إذا دهمهم اللصوص، واستغاثة المريض بالطبيب في تشخيص دائه ووصف العلاج المناسب له.

ففي مثل هذه الحالات ـ كلها ـ لا تكون الاستغاثة بغير الله شركًا، بل تكون من قبيل تحصيل الأسباب التي أمرنا أن نجعل لها اعتبارًا في السعي إلىٰ حاجتنا ومطالبنا.

لكن ينبغي أن لا يعول العبد علىٰ هذه الأسباب وحدها، فإن ذلك ينافي التوكل علىٰ الله جل شأنه، كما لا يصح أن يقصر فيها فيكون ذلك تواكلاً وتضييعًا.

وبهذا البيان يعلم حكم الاستغاثة بالموتىٰ والغائبين، كما يفعله كثير من الناس الآن، حين يستنجدون بالمشايخ أصحاب الأضرحة أو بشيوخهم الأحياء البعيدين، حتىٰ أن الواحد من هؤلاء حين يمسه ضر، أو حين يريد أن يرفع حملاً ثقيلاً ينوء به، أو حين تتعسر امرأته في ولادة، أو حين يشب في بيته حريق، ونحو ذلك لا يجد أمامه من وسائل

الخلاص إلا أن يصيح باسم واحد من هؤلاء الشيوخ مستغيثًا به معتقدًا أنه حي في قبره، وأنه يسمع نداءه على البعد، وأنه سينهض لإغاثته يجر أكفانه.

وقد يتفق حينئذ أن يفرج الله ما نزل به من كرب فسرعان ما ينسب ذلك إلى من استغاث به من شيخ أو غائب، ناسيًا أن الذي خلصه من شدته ونجاه من كربه ليس إلا ربه اللطيف الخبير الرحمن الرحيم، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٤].

ولقد لفت الرسول ﷺ نظر أصحابه إلى ما في الاستغاثة بغير الله من معنى الشرك، فقال لهم حين جاءوا يستغيثون به من منافق كان يؤذيهم: (أنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل)[1].

وفي حديث مانعي الزكاة، يقول ـ عليه السلام ـ ما معناه: (لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، فيقول: يا محمد أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلغتك)[2].

***

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٦٢)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث. ورواه أحمد بنحوه (٥/ ٣١٧).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٤)، (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

الاستعاذة

الاستعاذة من العبادات القولية، ومعناها: طلب العوذ، وهو الحماية.

قال ابن كثير رحمه الله: «هي الالتجاء إلى الله، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذ يكون لدفع الشر»[١].

وهذا المعنى لا يجوز بالنسبة للمخلوقين أصلاً، فليس لأحد أن يستعيذ بغير الله جل شأنه، ولا أن يلتجئ إلا إليه، وكل الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب، لم يجئ فيها استعاذة بمخلوق بل كلها صريحة في إخلاص الاستعاذة بالله - جل شأنه - قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل:٩٨].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ [غافر:٥٦].

وقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت:٣٦].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:١].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٩).

ولم ترد استعاذة - قط - على لسان أحد من الأنبياء أو الصالحين بغير رب العالمين.

فموسى - عليه السلام - لما راجعه قومه في شأن البقرة التي أمرهم بذبحها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة:٦٧].

وأم مريم - عليها السلام - لما ولدتها واعتذرت إلى الله من كونها أنثى لا تصلح للخدمة في بيت المقدس، قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾ [آل عمران:٣٦].

ونوح - عليه السلام - لما عاتبه ربه على سؤاله ما لا علم له به من نجاة ولده الكافر: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هود:٤٧].

ومريم - عليها السلام - حين تمثل لها جبريل - عليه السلام - بشرًا سويًا، وخشيت أن يكون قد قصد بها سوءًا: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم:١٨].

وقد حكى الله عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن ولاموا قومهم في شأن من كان يشرك في الاستعاذة من الإنس[1]: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ

---

(١) يعني في استعاذتهم بالجن.

ﭐلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴿٦﴾ [الجن:٦].

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسىٰ بواد قفر يخاف فيه علىٰ نفسه يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد كبير الجن، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون ـ من خوفهم ـ زادوهم رهقًا، أي: خوفًا ورعبًا، حتىٰ بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم.

وقد وضع النبي ﷺ لأمته بدلاً من هذه الاستعاذة الشركية، استعاذة فيها التجاء إلىٰ الله وتحصن بكلماته التامات فقال: (من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتىٰ يرحل من منزله ذلك)[1] رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد نص الأئمة كأحمد وغيره علىٰ: أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، ولهذا نهىٰ العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها، خشية أن يكون فيها استعاذة بمخلوق، وذلك شرك »[2].

وبهذا يعلم أن ما يفعله كثير من النساء ـ وأشباه النساء الآن ـ من استرضاء الجن بإقامة حفلات الزار ونحوه، وما يصاحب ذلك من عربدة ورقص واختلاط الرجال بالنساء وذبح الذبائح باسم الجن، والتزيي بالأزياء التي يزعم الوسطاء أن الجن يطلبونها كل ذلك داخل في باب

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) انظر: الرد علىٰ البكري ص١١٨، ومجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٣٦).

الاستعاذة بغير الله، وكله من الشرك الذي يبرأ منه الإسلام.

**

وأتم الكلام على العبادات القولية بذكر أقوال تجري على ألسنة الناس لا يلقون إليها بالاً وهي معدودة من الشرك الأصغر، وقد تكون شركًا أكبر بحسب حال قائلها وقصده.

ومن أفحش ذلك أخطره وأكثره ذيوعًا بين العامة والخاصة:

الحلف بغير الله - عز وجل - كأن يحلف أحدهم بالنبي ﷺ أو بالكعبة المشرفة، أو بحياته، أو بحياة أبيه، أو يحلف بواحد من هؤلاء الشيوخ أصحاب الأضرحة حتى ترى الواحد منهم يحلف بالله، فإذا أراد تغليظ اليمين ليحمل الناس على تصديقه شفع ذلك بالحلف بسيده فلان أو بشيخه فلان.

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[1].

ولهذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا، أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا»[2].

---

(١) أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (١/ ٤٧)، (٢/ ٣٤، ٦٩، ٨٦، ٨٧).

(٢) ابن أبي شيبة (٤/ ١٧٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧): روا الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح.

وإنما عني بذلك أن الحلف بالله كاذبًا وإن كان كبيرة من الكبائر فإن الحلف بغيره شرك، والكبيرة مهما عظمت فهي دون الشرك وأهون منه.

وإذًا فليس لمخلوق أن يحلف إلا بالله ـ عز وجل ـ أو بصفة من صفاته، كأن يقول: وعزة الله، وقدرة الله، وجلال الله، ونحو ذلك، ولكن الخالق ـ سبحانه ـ له أن يقسم بما يشاء من خلقه، تنبيهًا لذوي العقول إلى ما اشتمل عليه من دلائل القدرة، وبالغ الحكمة، وجسيم النعمة، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠]، وغير ذلك من الأقسام التي اشتمل عليها الكتاب العزيز.

وإنما كان الحلف بغير الله شركًا لأنه فوق ما فيه من تعظيم المحلوف به تعظيمًا بالغًا هو ـ أيضًا ـ متضمن إشهاده على صدق الحالف فيما يخبر به، إن كان الحلف على شيء مضى، ولا شك أن الذي يملك الشهادة على ذلك هو من رآه أو سمعه وأحاط به علمًا وليس ذلك إلا الله عز وجل. فالحلف بغير الله في هذه الحالة يكون معناه: اعتقاد أن له من علم الغيب ما لا ينبغي إلا لله، فيكون حينئذ قد جعل لله ندًا.

وإن كان الحلف على أمر مستقبل يكون معناه: أنه يعاهد المحلوف به أن يقوم بما حلف عليه، وهذا من جنس النذر الذي هو عبادة لا ينبغي لغير الله، وفيه كذلك معنى الاستعانة به على إتمامه، ولهذا إذا حنث ولم يوف لزمته الكفارة، فإذا كانت اليمين مطلقة ماضية كانت أو مستقبلة متضمنة لمثل هذه المعاني التي هي أدخل في باب التعبد. لا جرم كانت

مخصوصة بالله جل شأنه، وأما غيره فليس أهلاً لأن يحلف به لا على الماضي الذي لم يشهده لعدم علمه به، ولا على المستقبل لأن الحالف لا يجوز أن يلتزم نحوه بشيء.

ولهذا يفهم معنى الحديث في كون الحلف بغير الله شركًا.

ولكن الذين لا يعلمون يستهولون ذلك ويرمون من يقوله بالتشدد والمبالغة، وذلك لأنهم اعتادوا على الحلف بغير الله، وكثر جريان ذلك على ألسنتهم حتى هان الأمر عليهم، والله يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قول الرجل للرجل: «ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حمى الله وحماك». ونحو ذلك بما يفيد اتخاذه ندًا لله سبحانه وتعالى، فإن العطف بالواو في هذه الكلمات يقتضي المشاركة، ومساواة المعطوف للمعطوف عليه في الحكم، بحيث تكون مشيئته مساوية لمشيئة الله، وحمايته مساوية لحمايته، وتوكله مساويًا لتوكله على الله، ولا معنى للندية إلا ذلك.

أما إذا عطف بثم بدلاً من الواو، فقال: ما شاء الله ثم شئت فلا بأس. فإن ثم تقتضي تأخر المعطوف في الرتبة عن المعطوف عليه فتنتفي المساواة.

كما روي عن حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**)(١).

وروى النسائي عن قتيلة الأنصارية - رضي الله عنها - أن يهوديًا أتى إلى رسول الله فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت. وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا، أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت(٢).

وروي النسائي - أيضًا - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت». فقال: (**اجعلتني لله ندًا، قل: ما شاء الله وحده**)(٣).

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، أنه قال: «الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل، على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي. وتقول: لولا الكلب لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقولة الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانًا، هذا كله شرك»(٤).

---

(١) رواه الدارمي (٢/ ٢٩٥)، وابن ماجه (٢١١٨)، و أحمد (٥/ ٧٢، ٣٩٣).

(٢) النسائي (٣٧٧٣)، والحاكم ٤/ ٣٣١، والبيهقي ٣/ ٢١٦ .

(٣) رواه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٦٢)، وابن كثير (١/ ٥٨ - ٥٩).

فليتدبر العاقل هذا كله، وليحذر من مزالق الشرك ومداخله، وليبتعد عن كل ما يوهم الندية لله حتىٰ يسلم له توحيده الذي هو رأس الأمر كله، وليكثر من قوله: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»، حتىٰ يكون قد برئ من الشرك كله.

وإذ قد فرغنا من الكلام علىٰ العبادات القلبية والقولية، وعرفنا ما قد يلابس هذه العبادات من معان شركية تؤدي إلىٰ حبوطها، بل وتحيلها إلىٰ أوزار وآثام تكون وبالاً علىٰ صاحبها.

نريد أن نتحدث علىٰ نوع آخر من العبادات لا يتعلق بالقلب وحده ولا باللسان وحده ولكنه يجمع بين عمل اللسان والقلب والجوارح، وهو ما يسمونه بالعبادات البدنية.

العبادات البدنية

وأهم هذه العبادات علىٰ الإطلاق هي: الصلاة، من حيث إنها أجلىٰ مظهر للعبودية، وأوضح عنوان علىٰ التوحيد، وقد ورد في الحديث: (إن وجه دينكم الصلاة، فلا يقبحن أحدكم وجه دينه)(١).

وفي صحيح مسلم من حديث الحارث بن عاصم الأشعري: (الصلاة نور)(٢).

---

(١) لم نجده.

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

ولهذا ورد من التأكيد في شأنها والتنبيه على عظيم خطرها ما لم يرد بالنسبة لعبادة غيرها.

ويكفي دليلاً على هذا أنها كانت أول فريضة في الإسلام بعد التوحيد، وأن فرضيتها تمت في السماء ليلة الإسراء من الله إلى رسوله ﷺ بلا وساطة . وأنها لا تسقط عن أحد من المكلفين بعذر من مرض أو خوف أو سفر إلا عن حائض أو نفساء .

بل أمر الله بالمحافظة عليها حتى مع التحام الصفوف ومباشرة القتال، فقال تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩﴾ [البقرة:٢٣٨، ٢٣٩].

وجعل المحافظة عليها والخشوع فيها أول خصال الإيمان وآخرها، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون:١-١٠].

كما جعل التهاون فيها والتكاسل عن أدائها أبرز علامات النفاق وديدن الأشرار والفساق، فقال تعالى في صفة المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

وفي آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة:٥٤].

وقال بعد أن ذكر المنعم عليهم بالهداية والاجتباء: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩].

وسمى الله تركها شركًا، فقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم:٣١].

وأخبر عن أصحاب اليمين أنهم: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر:٤٠-٤٣]، فيجيبهم هؤلاء بقولهم: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر:٤٢].

بل ولا يقبل من مشرك توبة إلا بعد إقامتها، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة:١١].

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا

الصلاة، ويؤتوا الزكاة)[١].

وفي الحديث الآخر: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)[٢].

كما سمى أداءها إيمانًا لأنها أظهر علاماته، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، لأنها نزلت في شأن من ماتوا قبل تحويل القبلة.

وقد أخبر الله عن الصلاة إنها دواء لكثير من أدواء النفوس ورذائل الأخلاق مثل الهلع والحرص وحب الشهوات والجزع عند المصيبة والغفلة عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة:٤٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾[طه:١٤].

وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٣].

ولقد كانت الصلاة أعظم شعارات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأعظم ما يهتمون له من أعمالهم.

---

(١) رواه البخاري (٢٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (١/ ٢٣٢)، وابن ماجه (١٠٧٩).

(٣) أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨).

فهذا إبراهيم خليل الرحمن يقول في دعائه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم:٤٠].

وهذا ولده إسماعيل يمدحه القرآن بأنه: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم:٥٥].

وهذا عيسىٰ ابن مريم يقول لقومه وهو يتحدث إليهم في المهد ببراءة أمه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١﴾ [مريم: ٣٠،٣١] .

فأين هذا مما يزعم المخدوعون من الصوفية أن الصلاة وسائر التكاليف قد سقط عنهم لأنهم وصلوا إلىٰ درجة من الشهود والمعرفة لا يحتاجون معها إلا أداء رسوم العبادات.

ونسي هؤلاء الجاهلون أن النبي ﷺ وهو في مرض موته كان يخرج يهادىٰ بين الرجلين من أصحابه حتىٰ يدخل في الصف وأن آخر وصيته له ظل يرددها حتىٰ تجلجل لسانه في قوله: (الصلاة وما ملكت أيمانكم)[1].

وأن الله أمره أن يدوم علىٰ عبادته حتىٰ الموت، بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩].

---

(١) أبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨)، وأحمد (٦/ ٢٩٠، ٣١١، ٣٢١) من حديث علي. وقد ورد عن أم سلمة وأنس رضي الله عنهم.

ونكتفي بهذا القدر في بيان فضيلة الصلاة وعظيم خطرها في الإسلام، ولاسيما وأن هذا خارج عن موضوعنا، إذا ليس من غرضنا في هذا البحث إلا بيان أنواع العبادات التي تعبدنا الله بها، وما قد يداخل كلاً منها من ألوان الشرك التي تنافي توحيد الإلـٰهية، ولا شك أن الصلاة من جملة العبادات التي قد يعرض لها ما يفسدها، ويذهب بما يجب فيها من الإخلاص الذي هو روحها وروح العبادات ـ كلها ـ فمن ذلك مثلاً: الرياء، وقد سماه الرسول ﷺ الشرك الأصغر[1]، وذكر أنه يدخل على القلب أخفى من دبيب النمل، كما يزين الرجل في صلاته لما يرى نظر الناس إليه، طلبًا للمحمدة والثناء.

وقد ورد في ذم الرياء كثير من الآيات والأحاديث، وأخبر الله عنه أنه محبط للأعمال، وأنه من خصال المنافقين، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤].

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا

(١) مسند أحمد ٥/ ٤٢٨، ٤٢٩، والحاكم (٤/ ٣٦٥)، والطبراني في الكبير (٤٣٠١)، والبزار (٣٤٨١).

﴿ صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥، ١٦].

وقد صح أنها نزلت في المرائين.

ومن ذلك - أيضًا - الصلاة عند القبور أو إليها، بأن يتخذها قبلة في الصلاة، وهذا العمل حرام، فقد صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد. وأخبر أنه كان سببًا للعنة اليهود والنصارى[(١)].

ولا شك أن هذا الوعيد الشديد باللعن وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله لا يترتب إلا على ارتكاب أمر بالغ في الحرمة.

فكيف إذا انضم إلى هذا قصد التبرك بصاحب الضريح، واعتقاد أن الصلاة عنده أكثر ثوابًا وأرجى قبولاً لما يتوهم من شفاعة صاحب الضريح في قبولها ومضاعفة الثواب عليها ؟

لا شك أن هذا يكون شركًا صريحًا، لأنه جعل لغير الله مدخلاً في قبول الأعمال أو ردها، كما هو حال هؤلاء العاكفين على أضرحة المشايخ ممن لا يحلوا لهم الصلاة إلا فيها. يعدون ذلك من أعظم القربات، بل وقد يقيمون فيها الجماعات مع سماعهم لهذه الأحاديث التي تشدد النكير على اتخاذ القبور مساجد .

ومن المضحك أن بعضهم يحمل النهي فيها على كراهة التنزيه، وبعضهم يحمله على ما لو صلى فوقها أو إليها، ومنهم من يقول إنما

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٣١).

يـنهىٰ عن بنـاء المساجـد عليها لا عـن الصلاة عندهـا إلىٰ غير ذلك من التأويلات السمجـة التي يريدون بهـا تبرير جريمـتهم النكراء. وهيهات فإن الأحاديث من الصراحة والوضوح بحيث لا تقبل هذا الروغان.

وقد روي عن عائشة ـ رضـي الله عنها ـ قالت بعد أن روت الحديث: «ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خشي أن يتخذ مسجدًا»[1].

ولا شك أنهـا لـم تكن تقـصد بذلـك الصلاة فوق القـبر الشريف ولا إليه، ولكن الصلاة عنده، ومن ذلك شد الرحال إلىٰ غير المساجد الثلاثة بقصد التـقرب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بـالصلاة فيه، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قـال: (لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاث مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصىٰ)[2].

والنهي هنا عـام بالنسبة لكل مـكان يشد إليه الرحـال بقصد التعبد، سواء كان مسجدًا أو غير مسجد.

وهذا لا يـنافي طـبعًا شـد الرحـال لطلـب العلم أو لصلـة الرحم أو للتجارة ونحو ذلك مما لا يقصد للتعبد.

وبهـذا يعلـم فسـاد قول مـن زعم من الـصوفـية: أن الاسـتثنـاء في الحـديث ليس مـن عموم الأمكـنة بل من عمـوم المسـاجد، وذلك لكي

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٣١).

(٢) رواه البخاري (١١٩٨)، ومسلم (٥١١).

يبرروا حجهم إلى أضرحة شيوخهم وحثهم المطايا إلى أجداثهم مهما كلفهم ذلك من نفقة وجهد، جاعلين ذلك من أفرض الفرائض، حتى لقد يؤثرونه على حج بيت الله الحرام، ولا عجب في أن تأليه الصوفية لشيوخها أمر واضح معلوم.

ومن العبادات البدنية ـ كذلك ـ الصيام، وهو في لسان الشرع: إمساك عن المفطرات من الطعام والشراب والجماع بنية صحيحة، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس إيمانًا واحتسابًا لله عز وجل.

والصوم من أحب العبادات إلى الله ـ سبحانه ـ ومن أجل ذلك اختاره ليكون مظهر الشكر له على نعمته العظمى بإنزال القرآن الكريم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وجعل الشهر الذي يقع فيه الصوم خير شهور السَّنة ـ كلها ـ وجعل فيها ليلة خيراً من ألف شهر وسماها ليلة القدر.

ولا غرو فالصائم وقد ترك الطعام والشراب وهما مادة حياته، وهجر كل طيباته ومستلذاته لا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة، صار حقيقًا بالوعد الذي وعد الله به الصائمين، وهو أن يتولى جزاءهم بنفسه، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي)[1].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١٦١ تحت ١١٥١).

ومعنىٰ أن الصوم وحده من بين سائر الأعمال لله، أنها جميعًا مظنة الرياء، ولا تخلو من أن يكون للنفس فيها حظ، لأنها أفعال ظاهرة، وأما الصوم فمن قبيل التروك، إذ هو كف النفس عن مشتهياتها فهو عبادة سلبية، وسر بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه غيره، فكان أبعد عن الرياء.

ولما كان خلو المعدة من الطعام بالصوم سببًا في تغير رائحة الفم جعل خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك[1].

وشبه الرسول ﷺ الصائم برجل في عصابة ومعه صرة مسك فكلهم يجد ريح ذلك المسك[2].

والصوم كالصلاة من العبادات التي لا يخلو عنها دين من الأديان حتىٰ تلك الأديان الوضعية التي لم تتصل بسبب إلىٰ السماء تعرض علىٰ أتباعها أنواعا مختلفة من الصيام، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾[البقرة:١٨٣].

وذلك لأن الصوم فيه من وسائل التربية وأساليب الرياضية النفسية ما لا يتوفر في غيره من العبادات. فهو يقوي، الإرادة ويقهر النفس الأمارة بالسوء، ويكفكف نوازع الشر، ويعود علىٰ الاحتمال بالصبر.

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٥، ١٨٠٥)، ومسلم (١١٥١).

(٢) الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢).

وهو كذلك انتصار للجانب الروحي الملائكي في الإنسان، على الحيوان الرابض فيه، فالصائم يسمو على كل شهوة ويعافها من أجل أن الله أمره بذلك، وإذا عرف الإنسان كيف يقهر نفسه ويحجزها عن محبوباتها من أجل غاية أسمى فإنه يسهل عليه بعد ذلك أن يقودها إلى كل ما فيه نجاتها وسعادتها، وأن يردها عن موارد الهلكة والشقاء، فيسعد بها، وتسعد به، ويعيش حياته حرًا، لا تستبعده شهوة، ولا يستفزه طمع، ولا تضره فتنة.

ولعل هذا هو معنى الحديث الصحيح: (الصيام جنة)[1]، إذ المراد أنه: وقاية لها من كل ما يدنسها ويوبقها، ويهبط بها إلى حضيض الشهوات المؤثمة.

ولنكتف بهذا القدر في بيان فضيلة الصوم، فإن الذي يعنينا ـ هنا أيضًا ـ هو التنبيه على ما قد يداخل هذه العبادة الشريفة من أنواع الفساد والبدع، فإن الشيطان لا يريد أن يدع عبادة من العبادات حتى يدخل عليها من وساوسه وتلبيساته ما يفسد على الناس معناها حتى لا يبقى حظهم منها إلا كسراب بقيعة .

فمن ذلك ما سوله لبعض المتصوفة من المبالغة في الجوع والحرمان حتى تراهم يصومون أيامًا وليالي متصلة، زاعمًا لهم أنهم إذا جاعوا ماتت فيهم الشهوات، فتقوى عند ذلك أرواحهم، وتصفوا نفوسهم،

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١٦٢تحت ١١٥١).

وتتخلص من قيود الجسد.

وليس هذا طبعًا صيام أهل الإسلام، ولكنه صيام عباد الأوثان من فقراء الهنود وأتباع بوذا وجماعات (النيرفانا).

وقد يمسك بعضهم عن أنواع معينة من الطعام كاللحوم ونحوها مكتفيًا ببعض النباتات أو الخبز القفار، مما يسبب لهم هزالاً في البدن، وفسادًا في الخيال، وسقمًا في التفكير، وضعفًا عن القيام بواجبات العبادة من الصلاة والجهاد ونحوها.

وقد يزيد في التلبيس عليهم فيوهمهم أنهم لا يطيقون شكر هذه الأطعمة الدسمة والمآكل اللذيذة فيجب أن يقتصروا على ما يستطيعون أن يقوموا بشكره.

وقد روي للحسن رضي الله عنه أن رجلاً من هؤلاء الصوفية قال: «إني لا آكل الخبيص لأني لا أطيق شكره». فقال الحسن رضي الله عنه: «ويح هذا الأحمق، وهل يطيق شكر نعمة الماء البارد ؟»[1].

ومن ذلك أيضًا ما اعتاده كثير من المسلمين من الإسراف البالغ في تناول الأطعمة المختلفة عند الإفطار بكميات هائلة لا تلبث أن تثقل على المعدة، فتكسلهم عن الصلاة، وتجلب لهم النوم، وترهق أجسامهم أشد الأرهاق. وهذا نتيجة للجهل بحقيقة الصوم والغرض المقصود منه، فإنه لم يشرع لكي يجوع الناس طول النهار ثم يقوموا بتعويض ما فاتهم

---

(١) البيهقي في الشعب (٤٥٨٣).

في الليل. بل يجب أن لا يزيد الإنسان عما اعتاده في غير رمضان إن لم يستطيع أن يقلل عنه.

ولعل هذا الإسراف في الأكل والشراب في رمضان هو الذي جعل المسلمين لا يستفيدون من صوم شهرهم الفائدة المرجوة لصلاح أرواحهم وجسومهم.

ومن العبادات البدنية: الحج إلى بيت الله الحرام، وهو آخر فريضة فرضت في الإسلام. ويزيد على الصلاة والصوم: أن فيه عنصر المال إلى جانب ما يشتمل عليه من الأعمال والأقوال.

والحج رحلة إلى الله - تعالى - يقوم به المسلم لينال بها إذا هو أداها على وجهها الصحيح: طهارة لنفسه من أوزارها حتى يرجع كيوم ولدته أمه، ويفوز على ذلك برضوان الله وجنته. فـ «الحج المبرور: ليس له جزاء إلا الجنة» كما جاء في الحديث[1].

وكثير من الناس لا سيما أدعياء الثقافة والعلوم العصرية لأنهم لا يفقهون الحكمة من هذه الفريضة، تراهم يثيرون الشكوك حول كثير من الأعمال التي جعلها الله مناسك للحج كاستلام الحجر الأسود وتقبيله، ورمي الجمار ونحو ذلك، ويتساءلون عن الحكمة فيها، وإذا حاول أحد إقناعهم بما تعكسه هذه الأعمال المختلفة مع ما يلابسها من الأدعية الضارعة والأذكار الخاشعة على النفس من انطباعات وأحاسيس تزيد

---

(١) البخاري (١٦٨٣)، ومسلم (١٣٤٩).

معنىٰ الإسلام فيها صقلاً وجلاء، وتشعرها بمعاني العبودية الكاملة الخائفة الراجية، لم يجد الكلام مساغًا لدىٰ هذه القلوب الشاردة الغافلة.

ولكننا مع ذلك سنحاول جهد الطاقة أن نقرب إليهم هذه المعاني، وإن كنا لا نرىٰ ذلك واجبًا؛ فإن واجب المسلم أن يذعن ويمتثل كل ما أمر به، علم الحكمة في ذلك أم لم يعلمها. فإن الاعتراض علىٰ الأمر إبليسية قديمة أعاذنا الله منها.

فالحاج يخرج من بلده بعد أن يكون قد رد الحقوق والودائع إلىٰ أهلها، وتحلل من كل مظلمة ظلمها، تاركًا وطنًا يحبه، ومسكنًا يرضاه، وأهلاً وأولادًا يخاف عليهم، وتجارة يخشىٰ كسادها، متحملاً مشقة السفر، وألم الفراق، ووحشة الاغتراب، كل ذلك في سبيل الاستجابة لنداء ربه حيث دعاه لزيارة بيته الذي اختصه لنفسه، وجعله أول بيت وضع لعبادته في أرضه .

وما هو إلا أن يبلغ الميقات حتىٰ يتأهب للقدوم علىٰ مولاه، فيتجرد من ثياب زينته، ويتلفف بثياب العبودية المحضة إزارًا ورداء، بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب، ثم يهل بعد الصلاة بنسكه من حج أو عمرة، قارنًا ذلك بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

هذه الكلمات التي تفيض بمعاني التوحيد والإخلاص، وتعلن إقبال العبد علىٰ ربه، وإسراعه في طاعته، وتخصه وحده ـ سبحانه ـ بأن له الحمد كله والنعمة والملك، وتنفي عنه الشريك في ذلك كله.

ثم هو بعد ذلك يلتزم في تصرفاته كلها ما التزمه العبد بحضرة سيده، فلا يصدر منه عدوان ـ أصلاً ـ بل كل شأنه سلم وأمن، فلا يقتل حيوانًا حتىٰ ولو كان من هوام الجسم، ولا ينفر صيدًا، ولا ينتف شعرًا، ولا يغطي رأسًا، متجنبًا الرفث والفسوق والمراء والجدال.

حتىٰ يقدم مكة ـ بلد الله الحرام ـ فيبادر إلىٰ أداء مناسك عمرته التي هي: الطواف بالكعبة المشرفة، والسعي بين الصفا والمروة، ذاكرًا في طوافه وسعيه أنه في جوار ربه الكريم، الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، فيدعوه في ذلة وضراعة أن يحط عنه أوزاره وخطاياه.

ومن عجب أن كل ملوك الدنيا ورؤسائها يتخذون لهم قصورًا يؤمها الناس من رعيتهم وغيرهم في المناسبات المختلفة إعرابًا عن ولائهم لهم، حتىٰ ولو لم يكونوا هم موجودين فيها. فماذا ينكر إذًا من وجود بيت الله في أرضه يؤمه عباده إظهارًا لذل العبودية، وقيامًا بواجب الطاعة، وتخففًا من أثقال الذنوب، وطلبًا للفضل والرحمة من الكريم المنان.

وهكذا كل أعمال الحج من: السعي والوقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمار والذبح، لا تخلو كلها من معاني التعبد المحض والتزلف للسيد المالك جل شأنه، كما تتزلف الرعايا ملوكهم، ولله المثل الأعلىٰ.

أما تقبيل الحجر الأسود، فإنه لا يخطر ببال مسلم ـ أبدًا ـ وهو يقبله أنه ينفع أو يضر، كما روي عن الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال بعد أن قبله: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ

يقبلك، ما قبلتك»[١].

فنحن نقبله كما قال عمر رضي الله عنه: اقتداء برسولنا ﷺ وهو ـ عليه السلام ـ لم يفعل ذلك من عند نفسه بل بوحي من ربه. فماذا إذًا في تقبيل حجر تعبدنا الله بتقبيله، فنحن نقبله عبادة لله، لا عبادة للحجر.

وأما رمي الجمار: فإن المسلم يذكر عند الرمي أنه يرجم الشيطان، الذي كان سببًا في صرفه عن طاعة ربه، والذي يتسلط عليه بإغوائه ووسوسته ليجعله من أصحاب السعير.

فكأن المسلم حين يرمي هذه الحصيات مكبرًا عند كل حصاة، يريد بذلك أن يعلن مخالفته لذلك الشيطان الرجيم حتى لا يصير من جنده الخاسرين. ويذكر عندئذ ما كان من أمر إبراهيم وولده إسماعيل ـ عليهما السلام ـ حين عرض لهما الشيطان يريد منعهما عن تنفيذ أمر الله في ذبح إسماعيل ـ عليه السلام ـ فرجماه، فارتد خاسئًا مدحورًا.

فما أحرى الناس أن يتدبروا هذه المعاني السامية حين قيامهم بمناسك حجهم وعمرتهم، حتى يشعروا فيها بطعم العبودية، ولا يرين على صدورهم شيء من الشك في حكمتها.

وما أحراهم ـ كذلك ـ أن يذكروا ما في الحج وراء هذه الفوائد الروحية الفردية من فوائد اجتماعية ـ عظيمة ـ تتمثل في ذلك اللقاء والتعارف بين المسلمين الوافدين من شتى أقطار الأرض تظلهم جميعًا

---

(١) البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

راية التوحيد، وتؤلف بينهم أخوة الإسلام حيث يتبادلون المنافع، ويتشاورون فيما يهمهم من عظائم الأمور، مصداق قول الله ـ تعالىٰ ـ لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨﴾

[الحج:٢٧،٢٨].

العبادات المالية

العبادات المالية: هي التي تعبدنا الله بها في أموالنا من الصدقات والذبائح والنذور ونحوها، وهذا النوع من العبادات قد دخله من ألوان الشرك وصوره ما يصعب حصره، فإن كثيرًا من الناس يجهلون أن لله عليهم عبادة في أموالهم التي هي من رزقه وفضله، وقد لبس عليهم الشيطان في أمرها كما لبس عليهم في غيرها بل أشد، فألقىٰ في روعهم أن هذه الأموال إنما سيقت إليهم ببركة الشيخ (فلان) أو بسبب دعائه وشفاعته، وأنه هو القائم علىٰ حراستها وتنميتها فهي ستبقىٰ ما بقي الشيخ راضيًا وهو لا يرضىٰ ـ طبعًا ـ حتىٰ يجعلوا له في هذه الأموال نصيبًا مفروضًا، فتراهم ليسوا علىٰ شيء أحرص منهم علىٰ سوق هذه الأموال من النذور الذبائح إلىٰ أضرحة هؤلاء المشايخ وعلىٰ شهود المهرجانات الشركية التي تقام لهم.

وإذا سولت لأحدهم نفسه أن يأكل النذر، الذي نذره لواحد من أصحاب هذه الأضرحة، فإنه يبقى طيلة عامه متوقعًا للمصائب التي تحيق به على يد الشيخ صاحب النذر - لاسيما - إذا كان الشيخ غضوبًا. كما تزعمه العامة في أبي العينين الدسوقي، فإذا جرى على هذا الآكل للنذر شيء من قدر الله عز وجل، من فقد مال أو ولد أو نحو ذلك أيقن أن الذي أصابه إنما بسبب غضب الشيخ عليه لعدم وفائه بالنذر.

وهكذا يعيش هؤلاء التعساء من عباد القبور في هم ناصب، وقلق واصب، لأنهم لا يدرون مواقع الرضى والغضب من نفوس هؤلاء الموتى، وأيهم أحق أن يرضوه، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الحج:٣١].

ونرى - بعد هذه المقدمة الطويلة - أن نكشف للناس عن هذه التلبيسات التي يلبس بها عليهم شياطين الإنس والجن، وأن نقول كلمة في هذه المسائل إعذارًا إلى الله - عز وجل - ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، ويكفينا في هذا المجال أن نثبت ان هذه الأمور من جملة العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه، فإنه إذا ثبت ذلك علم قطعًا أنه لا يجوز صرفها إلى غير الله، كما هو الشرط في سائر العبادات.

أما الصدقات فلا يشك مسلم في أنها من أعظم القربات إلى الله - عز وجل - وقد قرنها الله بالصلاة في كثير من آيات الكتاب الحكيم، وجعلها من أعظم خصال الإيمان، ووعد عليها بجزيل الثواب، بل وسماها قرضًا، ووعد عليه أضعافًا كثيرة.

ويطول بنا القول لو تتبعًا ما ورد في شأن الصدقة من الآيات والأحاديث، وهو أمر معلوم لكل من له إلمام بنصوص الوحيين، ولكن الذي يحتاج للتنبيه عليه هو ما يعرض للصدقة من أعمال شركية تحبطها وتبطل ثوابها، وذلك من الرياء والمن بها على الآخذ والاستطالة بها عليه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ أن يتحرى بصدقته الفقراء المجاورين عند الأضرحة لما يلتمسه من بركة أصحابها، أو أن يقيم لهم بها موالد، أو يشتري لهم بها أستارًا، أو بسطا، أو سرجا، أو نحو ذلك مما تزين به هذه الأضرحة ظنًا منه أن تلك قُرب يتقرب بها إلى الله عز وجل فلا يزداد بها من الله إلا بعدًا.

وهذه حال كثير من الناس لا يتحرون بصدقاتهم إلا هذه المواضع مما يدل على أنهم لم يقصدوا بها وجه الله ـ بل ـ إنما قصدوا إلى إرضاء أصحاب هذه الأضرحة ـ بل ـ قد يترك بعضهم الفقراء من ذوي قرابته أو أهل بلده ممن هم أحق بصدقته، ويدفعها إلى من لا يستحقها من سدنة هذه الطواغيت والعاكفين عليها.

وأما النذر فهو في الأصل غير مشروع، بل قد ورد النهي عنه، قال ﷺ: (لا تنذروا، فإن النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخره، وإنما يستخرج به من البخيل)(١).

ولكنه إذا نذر لزمه الوفاء، وصار النذر حينئذ قربة وعبادة لا تنبغي إلا لله، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾ [البقرة:٢٧٠]، وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، وقوله في صفة الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧].

وفي الحديث الصحيح: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)(٢).

وبهذا يتبين: إن ما ينذره بعض الجهلة لأصحاب الأضرحة من نقود وشموع ونحوهما هو نذر باطل وشرك صريح، وأنه لا يلزم أحدًا الوفاء بهذا النذر إذ لا وفاء لنذر في معصية الله عز وجل.

وقد روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني نذرت أن أنحر إبلاً بمكان كذا، فسأله النبي ﷺ عن هذا المكان، هل كان فيه صنم يعبد ؟. فقيل: لا. ثم سأل: هل كان يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية ؟ فقيل: لا . فقال للرجل:

---

(١) رواه البخاري ٦٦٩٢، ومسلم (١٦٣٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣١٧).

(أوف بنذرك فإنه لا وفاء بنذر في معصية، ولا فيما لا يملك ابن آدم)[1].

ومن العجيب أنه قد صدرت في هذا الموضوع عدة فتاوىٰ رسمية، وأذيعت عنه أحاديث كثيرة ـ كلها ـ مجمعة علىٰ بطلان هذه النذور واعتبارها شركًا، ولكن الناس لا يزالون سادرين في غوايتهم ومصرين علىٰ ضلالتهم لا يقبلون فيها لومة لائم، وقديمًا قيل: حبك الشيء يعمي ويصم.

وأما الذبح أو النحر: فلا يشك مسلم ـ كذلك ـ في أنه عبادة مأمور بها، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، والنسك هنا معناه: الذبح.

وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج:٣٤].

وقد أمر الله من تمتع بالعمرة إلىٰ الحج أن يذبح ما استيسر من الهدي. وأوجب علىٰ من ارتكب شيئًا من محظورات الإحرام فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

وقال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر:١، ٢]، فجعل الأمر بالنحر قرين الأمر بالصلاة.

---

(١) أبو داود (٣١١٣). قال في خلاصة البدر المنير (٢/ ٤٢٢): بإسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين.

وقد ورد أنه ﷺ نحر في حجة الوداع مائة بدنة، وأنه كان يضحي يوم عيد الأضحىٰ بكبشين أملحين، ولم تزل الأضحية واجبة علىٰ كل قادر عليها من المسلمين. فدل ذلك كله علىٰ أن الذبح عبادة يتقرب بها إلىٰ الله عز وجل، وفي الحديث: (أفضل الحج العج والثج)[١].

والمراد بالثج: صب الدماء.

وعلىٰ هذا فمن ذبح ذبيحة وأهل بها لغير الله، أو قصد التقرب بذبحها لغيره، أو أطعمها الناس علىٰ اسم غيره، كهذه الذبائح التي تذبح في مولد البدوي وغيره. فقد أتىٰ عملاً فظيعًا من أعمال الشرك، وضاهىٰ أهل الجاهلية الأولىٰ في ذبحهم لآلهتهم علىٰ النصب، وفي الحديث: (لعن الله من ذبح لغير الله)[٢].

* * *

(١) الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤) عن أبي بكر. والترمذي (٢٩٩٨)، وابن ماجه (٢٨٩٦) عن ابن عمر. وفيه رجل ضعيف.

(٢) رواه مسلم (١٩٧٨).

توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات: هو النوع الثالث من أنواع التوحيد، وله أهمية خاصة لكثرة ما يقع فيه من اللبس، ولطالما احتدم حوله الجدل وثار النزاع بين الطوائف المختلفة. فهو بحق مدحضة العلماء، ومذلة أقدامهم، ومحك اختبارهم، كم ضل فيه من علماء أعلام، وتاه في تيهه كثير من أولي النهىٰ والأحلام، ولا سبب لذلك - طبعًا - إلا الجري وراء الفلسفات الدخيلة والمذاهب الوثنية، وإحسان الظن بها، وتقديم ذلك علىٰ هدي الكتاب والسُّنة، وقد عالجت هذه الموضوع في كتابي المعروف: «ابن تيميه السلفي» عند الكلام علىٰ المذاهب المختلفة في الصفات، وفي شرحي للعقيدة الواسطية المعروف بالثمار الشهية.

وقد ألفت فيه أخيرًا رسالة صغيرة بعنوان: «مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في صفات الله تعالىٰ»، ولكنـي مع ذلك لازلت أرىٰ أن الموضوع من الخطورة بحيث يحتاج إلىٰ مزيد من الإيضاح والتأكيد.

وقد رأيت أن أقتصر هنا علىٰ إثبات المذهب الحق، ضاربًا صفحًا عن ذكر ما عداه من المذاهب، سواء ما كان منها غاليًا في الإثبات كمذاهب المشبهة والممثلة، أو غاليًا في النفي والتعطيل كمذاهب الجهمية والمعتزلة والفلاسفة.

وإن فيما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية - رحمهما الله تعالىٰ - في هذا الباب لغنية وشفاء، فقد أوفيا فيه علىٰ الغاية

إيرادًا للحجج والبراهين، وردًا على المشاغبين والمعاندين، وتركًا في هذا الموضوع من المؤلفات الصغيرة والكبيرة ما يعيا به الحصر. فعلى طالب الهدى الرجوع إلى ذلك ليعلم أين يكون الحق في هذا المضطرب الذي تتصارع فيه الآراء والأفهام.

ولقد رأيت أن أفتتح الكلام في هذا الموضوع بتلك المقدمة القوية الرائعة التي صدر بها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فتواه الحموية التي ألفها جوابًا على سؤال ورد إليه من حماة، يقول فيها صاحبه: «ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين في آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[طه:٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[الفرقان:٥٩]. وقوله جل شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ ۝١١﴾[فصلت:١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأحاديث الصفات كقوله ﷺ: (إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن)[١].

وقوله عليه السلام: (يضع الجبار قدمه في النار)[٢].

إلى غير ذلك. وما قالت العلماء فيه؟ وابسطوا القول في ذلك مأجورين إن شاء الله تعالى.

---

(١) النسائي في الكبرى (٧٨٦١) عن عبد الله بن عمرو، وأحمد ٤/ ١٨٢ عن النواس.

(٢) البخاري (٤٥٦٧، ٤٥٦٨، ٦٢٨٤، ٧٠١١)، ومسلم (٢٨٤٦، ٢٨٤٨).

فأجاب الشيخ رحمه تعالى وغفر له: «الحمد لله رب العالمين، قولنا فيها ما قاله الله ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين ابتعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الإسلام بعد هؤلاء، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب، وغيره.

فإن الله - سبحانه وتعالى - بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وشهد له أنه بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا، وأمره أن يقول: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾[يوسف:١٠٨] .

فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة وهو يدعو إلى الله، وإلى سبيله بإذنه على بصيرة. وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته.

محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه، وما يمتنع عليه، فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب، وذلك الرسول، وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولاً ؟

ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ وقد علم أمته كل شيء وقال: (تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)[(١)].

وقال فيما صح عنه أيضًا: (ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم)[(٢)].

وقال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب بجناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما»[(٣)].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فذكر بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه»، رواه البخاري[(٤)].

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين - وإن دقت - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم، فربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب.

بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من

---

(١) ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٣) أحمد (٥/ ١٥٣، ١٦٢).

(٤) رواه البخاري (٣١٩٢).

الرسول ﷺ على غاية التمام.

ثم من المحال - أيضًا - أن تكون القرون الفاضلة، القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين، وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق، وقول خلاف الصدق وكلاهما ممتنع.

إلى أن يقول: «ولا يجوز - أيضًا - أن يكون الخالفون أعلم من السالفين، كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف - بل - ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن: «طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم»، وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء فقد يعنى بها معنى صحيحًا.

فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه؛ فهم لذلك بمنزلة الأميين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨].

وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات.

فهذا الظن الفاسد، أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب

طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، والضلال بتصويب طريقة الخلف»[1].

وإذا كان توحيد الأسماء والصفات يقوم على أن الله سبحانه مختص بما له من الأسماء والصفات، لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وعلى وجوب إثبات كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تمثيل ولا تعطيل. فإن هناك قواعد عامة في هذا الباب يجب رعايتها حتى تكون بمنجاة من التورط في ورطات الضلال التي وقعت فيها الفرق المختلفة، فمنهم من غلا في الإثبات حتى مثل الله بخلقه، حتى أدى به ـ ذلك ـ إلى جحد الذات ـ نفسها ـ واعتبارها عدمًا، لا وجود له، ومنهم من أثبت الأسماء دون الصفات تحكمًا بلا دليل، ومنهم من أثبت بعض الصفات دون بعض، جريًا وراء وهم فارغ لا أصل له.

ولم يكن لهذا الضلال كله من سبب إلا الإعراض عن هدي الكتاب والسُّنة، والتصرف في نصوصهما بالتأويلات الفاسدة، والجري وراء الظنون الكاذبة بدعوى أنها عقليات لا تقبل النقض، والقول على الله سبحانه بلا علم.

***

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٥ – ٩).

القواعد والأسس التي يجب ملاحظتها في معرفة توحيد الأسماء والصفات:

أما تلك القواعد والأسس التي تجب ملاحظتها في هذا الباب فهي:
أولاً: لا يصح أن يسمى الله - عز وجل - إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ ولا أن يوصف - كذلك - إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فإن أسماء الله - تعالى - كلها توقيفية لا يجوز إطلاق شيء منها على الله في الإثبات أو في النفي إلا بإذن من الشرع.

وما لم يصرح الشرع بنفيه ولا بإثباته يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يريد به قائله، فإن أراد به معنى صحيحًا موافقًا لما ورد به النص قبل، ولكن لا يعبر عنه إلا بألفاظ النصوص، ولا يعدل عنها إلا لضرورة، وإن أراد به معنى فاسدًا وجب رده.

والأصل في ذلك أن معرفة الله - عز وجل - بأسمائه وصفاته، هي من شئون الغيب التي لاسبيل إلى إدراكها بالعقل وحده، فإن العقل لا يتجاوز بقدرته نطاق هذا الوجود الحسي الذي يمكن أن ينفذ إليه من طريق الحواس.

أما شئون الغيب فلا مجال له أن يحكم عليها بمقتضى أقيسته وبراهينه، وإنما وظيفته أن ينظر فيما جاءت به النصوص من أخبار هذه الغيوب فيثبت ما أثبتته النصوص، وينفي ما نفته، من غير أن يضيف من عنده شيئًا لا في الإثبات ولا في النفي.

ومهما توهم العقل أن صفة ما هي صفة كمال لا يجوز له إثباتها، ما لم تكن ثابتة بالشرع، ومهما توهم أن صفة ما هي صفة نقص، لا يجوز

له نفيها ما لم تكن منفية بالشرع، إذ لا عبرة في هذا الباب بوهم العقل فإنه قد أدىٰ في كثير من الأحوال إلىٰ نفي كثير من صفات الكمال الثابتة بالكتاب والسُّنة.

ثانيًا: يجب أن يكون معلومًا أن الله ـ عز وجل ـ لا يماثل شيئًا من خلقه ولايماثله شيء، فكل ما ثبت له من الأسماء والصفات فمعناه يختص به لا يشاركه فيه أحد.

ثم قد يكون هناك أسماء مشتركة بين الله وبين خلقه أو بين صفاته وصفات خلقه فهذه يجب أن لا توهم تشابهًا في المسمىٰ . فإن الاشتراك إنما هو في محض الاسم وفي القدر المشترك الذي يدل عليه عند الإطلاق، وذلك لا يوجب مماثلة أصلاً بين الله عز وجل وبين من يسمىٰ بهذه الأسماء أو يوصف بهذه الصفات من المخلوقين.

فتسمية الله تعالىٰ قادرًا لا توجب مماثلة قدرة الله لقدرة العبد، وكذا تسميته عالمًا ومريدًا وحيًا وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا وغير ذلك من أسمائه الحسنىٰ التي قد تطلق علىٰ غيره لا توجب أن علمهم كعلمه ولا إرادتهم كإرادته ولا حياتهم كحياته .. الخ.

والأصل في ذلك أن ما يوصف به العباد إنما يتعين ويتخصص بالإضافة؛ فإن أضيف إلىٰ الله كان معنىٰ مختصًا به لا يليق بغيره، وإن أضيف إلىٰ المخلوق كان معنىٰ مختصًا به يتنزه الله عز وجل عن الاتصاف به.

وفي تقرير هذه القاعدة على هذا الوجه حلّ لإشكالات كثيرة، فإن الذين نفوا عن الله - عز وجل - ما يطلق على خلقه من الأسماء والصفات، وتأولوا ما ورد فيها من الآيات والأحاديث، إنما فعلوا ذلك لتوهمهم أن إثبات هذه الأسماء والصفات يقتضي المماثلة بين الله وخلقه فعطلوا خوف التشبيه.

ولو أنهم أدركوا أن لهذه الألفاظ إذا أطلقت على الله معاني أخر غير التي تناسب المخلوق لما وقعوا في حمأة التعطيل، ولكن من يضلل الله فما له من سبيل.

وبناء على هذه القاعدة العظيمة: يمكن أن نثبت لله كل ما ورد به الكتاب العزيز من صفات الاستواء والمجيء والإتيان يوم القيامة والتكليم والنداء والمناجاة بأصوات مسموعة وحروف مفهومة والرحمة والحكمة والرضى والغضب والمحبة والكراهة واليدين والعينين والوجه أو غيرها.

وكذلك نثبت له ما وردت به السُّنة الصحيحة من صفات النزول إلى سماء الدنيا كل ليلة، والدنو من الحجاج عشية عرفة، والفرح بتوبة عبده حين يتوب، والضحك وغيرها، ما دمنا نعتقد أن كل ما ثبت لله من هذه الصفات هو غير ما ثبت منا للمخلوقين.

ثالثًا: أن كل ما ثبت لله من الصفات الوجودية فهو ثابت له على جهة الكمال المطلق الذي هو أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وراءه كمال آخر، ولا يمكن أن يعرض لها النقص بوجه من الوجوه؛ فهي

سبحانه له المثل الأعلى في كل ما ثبت له من الأسماء والصفات، ولا يمكن أن يكون هذا المثل لأحد سواه فصفاته وجدت كاملة من الأزل إلى الأبد، ولا يمكن أن يطرأ عليها النقص الذي قد يطرأ على صفات المخلوقين .

فحياته سبحانه أكمل حياة؛ لأنها من لوازم ذاته، فهي أقدم حياة، وأدوم حياة، وأقوى حياة . ولا يمكن أن تسبق بموت، ولا أن يلحقها موت قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾[الفرقان:٥٨].

وفي الحديث: (أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت، والجن والإنس يموتون)[١].

وكذلك كل ما تستلزمه هذه الحياة الكاملة من الصفات هو ثابت على أكمل وجه وأتمه . فقدرته أكمل قدرة لا يعجزها شيء ولا يصيبها لغوب أو إعياء.

وعلمه أوسع علم وأشمله، فهو محيط بجميع المعلومات لا يمكن أن يند عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وإرادته أتم إرادة فلا يقع في ملكه إلا ما يريد.

وسمعه وسع الأصوات كلها مهما خفتت فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾[طه:٧].

وبصره أكمل الأبصار رؤية، فلا تغيب عنه ذرة مهما دقت، ولا يؤثر فيه بعد، ولا يحجبه حيطان ولا أستار، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام:١٠٣].

وكلامه أتم كلام وأبلغه، فلا يمكن أن يكون في كلامه خفاء أو قصور قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾[الأنعام:١١٥].

وهكذا الحال في جميع الصفات، لا يجوز أن تثبت له إلا على هذا الوجه من الكمال.

وأما ما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائض والعيوب، فإن هذا النفي بمجرده ليس كمالاً، إذ الكمال لا يكون إلا أمرًا موجودًا، وأما الأمور السلبية أو العدمية فلا تكون كمالاً إلا إذا تضمنت أمرًا وجوديًا .

ولهذا لم يرد في الكتاب ولا في السُّنة نفي نقص عن الله عز وجل إلا ويراد به إثبات ما يضاده ذلك النقص من صفات الكمال . فنفي العجز في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[فاطر:٤٤].

ونفي السِّنة والنوم في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[البقرة:٢٥٥]، إنما يراد به إثبات كمال حياته وقيوميته.

ونفي الظلم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾[النساء:٤٠]، إنما هو لإثبات كمال عدله وحكمته. وهكذا في بقية الصفات[1].

ولهذا أيضًا لم يرد النفي في الكتاب ولا في السُّنة إلا مجملاً في أغلب أحواله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]، وقوله جل شأنه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾[مريم:٦٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾[الإخلاص:٤].

وأما صفات الإثبات فيكثر ورودها علىٰ جهة الاستيعاب والتفصيل.

رابعًا: أن صفات الله تعالىٰ نوعان:

أحدهما: صفات ذات، وهي التي تكون لازمة لذاته لا تنفك الذات عنها أزلاً وأبدًا، ولا يتعلق شيء منها بمشيئته وقدرته، وذلك مثل صفات الحياة والعلم والقدرة والعزة والكبرياء والملك والمجد والعظمة والقوة ونحوها.

---

(١) انظر: درء التعارض (٦/ ١٧٧)، والصفدية (٢/ ٦٤)، والجواب الصحيح (٣/ ٢٠٩)، ومجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٥٠)، و منهاج السنة النبوية (٢/ ١٨٣، ٣١٩)، والفتاوى الكبرى (٢/ ٣١٢).
وانظر دقائق التفسير (٢/ ١٢٧، ٣٦٤)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٣٦٩).

وثانيهما: صفات أفعال لا تكون لازمة لذاته بل يجوز خلو الذات عنها، وتعلق بها مشيئته وقدرته، فهو يحدثها سبحانه في ذاته شيئًا بعد شيء حسب اقتضاء حكمته، ولكن ليس لما يحدث منها في ذاته ابتداء بل تصدر أفرادها على التعاقب في الوجود متسلسلة شيئًا بعد شيء دون أن تنتهي السلسلة، لا في جانب الأزل، إذ لا ابتداء لها، ولا في جانب الأبد حيث لا انتهاء لها . قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧] .

ولنضرب لذلك مثلاً بصفة الكلام، فإن الكلام منه صفة ذات، وهو: قدرته تعالىٰ علىٰ أن يتكلم متىٰ شاء وكيف شاء، ولكن صدور الكلام منه بالفعل لا يكون إلا حادثًا بمشيئته وقدرته . إذ لا يعقل أن يكون كلم موسىٰ في الأزل وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[طه:١٢]، بل كلمه حين جاء إلىٰ الميقات كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[الأعراف:١٤٣].

وكذلك صفة الإرادة، لا يعقل أن يكون أراد الأشياء كلها في الأزل وإلا لوجدت كلها في الأزل، بل كل مراد من المرادات إنما يقع بإرادة جزئية خاصة به كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[النحل:٤٠].

وهكذا في جميع صفات الأفعال لا توجد أفرادها مجتمعة في الأزل بل لا توجد إلا على التعاقب فيما لا يزال. وهذا البحث مبسوط في كتابي «ابن تيمية السلفي» وفي كثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فليرجع إليه من شاء[1].

***

(١) انظر ابن تيمية السلفي ص ٨٧ – ١٦٩ .

وهذا الكلام له قاعدة عظيمة ينبغي الانتهاء إليها وهي: «أننا نصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، ثم نقف ولانتجاوز ذلك». فنقول: إنه تعالى كلّم موسى، فالقرآن كلامه غير مخلوق، وأنه عَلِمَ وأرادَ وشاءَ بلا ابتداء ولا انتهاء، ولم يرد إلينا في القرآن ولا في السنة في شيء من ذلك متى وكيف يكون؟ ولا تفصيل المراد بالكلام القديم والمحدث والفرق بين المحدث والقدرة على الكلام... إلخ فنمسك عن الخوض في كل ذلك لأنه من العقليات التي خاض فيها بعض العلماء بشيء من الحذر والحيطة لأجل ردّ شبهات الجهمية والمعتزلة والفلاسفة وأضرابهم من المتكلمين، فهم معذورون يما تكلموا فيه من ذلك لأجل الردّ على أولئك الفرق المعتدية، وهؤلاء العلماء لم يؤثر عليهم إلا ألفاظ قليلة في ذلك مثل قول الإمام أحمد:

«لم يزل الله متكلمًا إذا شاء»، «ولم يزل الله عالمًا متكلمًا، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وعلى كل جهة، ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه» – الفتاوى ٦/ ١٥٧ – وأما من عداهم فلا ينبغي أن يخوض في هذا الكلام لأن الخلاف فيه مستطير ومشهور وخطير: انظر الفتاوى ٦/ ١٤٤ – ١٦٣ لابن تيمية.

الأسماء الحسنى

سأقدم الآن - بتوفيق الله عز وجل - شرحًا بسيطًا موجزًا لبعض الأسماء الحسنىٰ التي تدور - كثيرًا - علىٰ الألسنة، والتي قد تخفىٰ معانيها علىٰ بعض الناس، أو قد يحملها المعطلة النفاة علىٰ معاني أخرىٰ غير المعاني الظاهرة منها، لأنهم يتوهمون أن في حملها علىٰ ظواهرها تشبيهًا لله - عز وجل - بخلقه.

وقد تضمن كتابي «الثمار الشهية في شرح العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شرح كثير من هذه الأسماء الحسنىٰ. ولكني مع ذلك لا أرىٰ بأسًا بإعادة القول فيها تعميمًا للفائدة، وزيادة في التذكرة، فإن الأمر من الأهمية والخطر بحيث لا يستكثر فيه كلام. إذ أصل العلوم كلها ومحورها الذي تدور عليه هو العلم بالله وأسمائه وصفاته؛ فمن لا علم له بذلك أو نقص حظه منه لم ينتفع بشيء من علمه: فأقول وبالله أستعين:

(**الله**): علمَ علىٰ الذات الواجب الوجود المستجمع لسائر صفات الكمال التي لا تنبغي لأحد سواه، والتي يستحق عليها غاية الحمد والثناء.

واختلف في لفظ الجلالة هل هو اسم جامد أو مشتق، فقيل أنه جامد غير مشتق من قبيل الأعلام المحضة التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها.

واحتج أصحاب هذا القول بأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالىٰ قديم بقدمه، والقديم لا يجوز أن يكون له مادة، وإلا كان مسبوقًا بمادته، والمسبوق بغيره حادث.

والصحيح أنه مشتق كغيره من الأسماء الحسنىٰ التي وضعت للدلالة علىٰ معان قائمة بذاته تعالىٰ، ولكن اختلف في مبدأ اشتقاقه . فقيل من يأله ألوهة وألوهية بمعنىٰ عبد عبادة.

وقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف:١٢٧]، أي: عبادتك، ويقال: ألهه بتشديد اللام يؤلهه تأليهًا: إذا عبده أو اعتقد ألوهيته . وعلىٰ هذا الرأي فهو إله بمعنىٰ مألوه أي معبود كما قال ابن عباس رضي الله عنهما «الله ذو الإلهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين».

وقيل: هو مشتق من أَلِه بكسر اللام يأله بفتحها ألهًا، كَوِله وَلهًا إذا تحير . وذلك لأن العقول تحار في اكتناه سر جلاله وعظمته . ولا تستطيع الإحاطة بكل أسمائه وصفاته، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: (سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك)[1].

وعلىٰ القول بأنه مشتق يكون وصفًا في الأصل، ولكن غلبت العلمية فتجري عليه بقية الأسماء الحسنىٰ إخبارًا كقوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾[البقرة:٢٥٥].

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦).

وكقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:١-٤].

وتجرى عليه أوصافًا كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢].

والفرق بين (الله) و(إله) أن الأول مختص به سبحانه لا يطلق على غيره لأنه علم عليه. وكان المشركون في جاهليتهم يعرفون ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥، والزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٩١].

وأما الثاني: وهو إله فيطلق على كل ما عبد بحق أو بباطل، ولهذا كانت كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تدل بصدرها على نفي كل معبود باطل والبراءة منه، وتدل بعجزها على إثبات وصف الإلـٰهية لله – عز وجل – وحده. فهي مركبة من نفي وإثبات. ولهذا كانت هي كلمة الإخلاص، ومحور الإسلام التي أمر النبي ﷺ أن يقاتل الناس حتى

يقولوها . فمن قالها فقد عصم دمه وماله بحقها .

ولهذا - أيضًا - كانت أساس كل دعوة بعث بها رسول من عند الله كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝﴾[النحل:٢].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۝﴾[النحل:٣٦].

فهاتان الكلمتان هما بمعنى لا إله إلا الله .

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝﴾[الأنبياء:٢٥].

ومادام لفظ الجلالة - كما قلنا - علمًا على الذات المتصفة بسائر صفات الكمال المختصة بها، يكون مشتملاً على جميع الأسماء الحسنى إجمالاً . وتكون هي بمنزلة التفصيل لذلك الإجمال، فمن قال: (الله) فقد دخل فيه كل اسم سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ . وهذا هو السر في أن الأسماء الحسنى كلها تجرى أوصافًا عليه لأنه متضمن لها مشتمل عليها .

وبعض من يزعمون لأنفسهم أو يزعم لهم الناس التحقيق والمعرفة من الصوفية يؤثرون الذكر بلفظ الجلالة (الله) على الذكر (بلا إله إلا الله) مع أنه لم يرد في الكتاب ولا في السُّنة ولا أثر عن أحد من السلف الذكر بلفظ مفرد . بل جميع الأذكار الواردة في الكتاب الكريم والسُّنة

المطهرة هي جمل وعبارات تامة كسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ..... إلخ .

وما يحتجون به من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝﴾[الأنعام:٩١]، فهذا مما يدل على فرط جهلهم لمعاني كتاب الله - عز وجل - فإن لفظ (الله) الذي أمر أن يقوله الرسول ﷺ ليس لفظًا مفردًا، بل هو جزء من جملة وقعت جوابًا عن الاستفهام السابق في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ ۝﴾[الأنعام:٩١].

فأمر النبي ﷺ أن يقول لهم: (الله)، بمعنى أن: الله هو الذي أنزل الكتاب، فهو بمنزلة قولك: (زيد)، لمن قال لك: (من عندك ؟) أي: عندي زيد.

ومن تلبيس الشياطين عليهم في هذا: أن من قال: (الله) لم يخطر بباله الشريك فيسلم توحيده من المنازعة . وأما من قال: (لا إله إلا الله) فقد خطر بباله غير الله، وهو يشوش عليه توحيده !

ونسي هؤلاء أن تمام التوحيد وكماله لا يكون إلا بقطع العلائق عن جميع الأغيار، ووصلها بالله وحده، فإنك إذا قلت لأحد من الناس: (إني أحبك) كان هذا إخبارًا بحبك له . وهو لا ينفي حبك لغيره، بخلاف ما لو قلت له: (لا أحب إلا أنت) فإن فيه إخبارًا عن إخلاصك الحب له، بحيث لا يتسع قلبك لسواه . ففرق بين هذا وهذا . ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أبلغ في إخلاص التوحيد من قولنا: (الله واحد) لأن الأولى لا

تحتمل الاثنينية بوجه، بخلاف الثانية فإن فيها شائبة احتمال .

**

(الرب): قال الراغب في المفرادات: (الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، ويقال: ربه ورباه وربَّبَه وقيل: لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن. فالرب مصدر مستعار مستعمل للفاعل، ولا يقال الرب مطلقًا إلا لله تعالى، المتكفل لمصلحة الموجودات.

وفي النهاية لابن الأثير: (الرب مطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم. ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال: رب كذا).

من هذا وغيره يتبين أنَ للفظ الرب عدة معان، فهو يطلق ويراد منه المربي للشيء ينميه بالتغذية، وينقله من طور إلى طور حتى يبلغ غاية كماله. ويطلق ويراد به المالك للشيء المدبر له وصاحب السيادة عليه.

ولا شك أن هذه المعاني كلها مما يصح أن تراد بلفظ الرب إذا أطلق على الله تعالى، فهو المربي عباده بنعمه تربية مادية بالأغذية والأقوات، وتربية روحية بإرسال الرسل، وإنزال الكتب والشرائع . وهو أيضًا: المالك للأشياء والقيم عليها والمدبر لشئونها والمتكفل بمصالحها وحفظها.

واسمه تعالى (الرب) من أصول الأسماء الحسنى التي تعتبر مدار الكثير من هذه الأسماء . فهو متضمن لصفات الخلق والرزق والملك

والتدبير والحفظ، ونفوذ المشيئة، والحلم وغيرها من شئون الربوبية المختصة به سبحانه. والإقرار بربوبيته تعالىٰ لكل شيء أمر مركوز في الفطر لا يكاد ينازع فيه إلا مكابر أو مغالط . كما حكىٰ الله - عز وجل - عن فرعون أنه قال لموسىٰ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾[الشعراء:٢٣].

وقد أجابه موسىٰ - عليه السلام - بما يقربه في نفسه، وإن جحده لسانه، فقال له: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝﴾ [الشعراء:٢٤].

وكذلك أخبر الله - سبحانه - عن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ أنهم مع إشراكهم في إلـٰهيتهم واتخاذهم الأنداد التي ساووها بالله تعالىٰ في استحقاق العبادة والتعظيم - كانوا يقرون لله بالربوبية المطلقة لجميع الأشياء، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾[يونس:٣١].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾[العنكبوت:٦١].

**

(الرحمن الرحيم) اسمان كريمان من الأسماء الحسنىٰ، يدلان علىٰ اتصافه تعالىٰ بصفة الرحمة، وهي صفة حقيقية لله - عز وجل - علىٰ ما يليق به . فلا يجوز القول بأن المراد بها لازمها، كإرادة الإحسان

ونحوه، كما تزعم المعطلة .

واختلف في سر الجمع بين هذين الاسمين الكريمين بعد الاتفاق على أن أولهما: (الرحمن) أكثر مبالغة من الرحيم، فقيل المراد بالرحمن: الذي وسعت رحمته جميع خلقه في الدنيا، وبالرحيم: الذي تخص رحمته المؤمنين في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات، وأما الرحيم فدال على تعلقها بالمرحوم، فهو الرحمن في ذاته، الرحيم لعباده بالفعل بتلك الرحمة[1].

ولعل مما يشهد لهذا، أن اسمه تعالى الرحمن لم يستعمل في القرآن الكريم متعديًا بخلاف الرحيم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣].

وفي الحديث الصحيح: (أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته)[2].

واسمه تعالى (الرحمن) من الأسماء المختصة به فلا يطلق على غيره، ولهذا يقع في ابتداء الكلام، وتجرى عليه النعوت، كاسم الجلالة

---

(١) انظر : بدائع الفوائد ص٢٨ .

(٢) أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٠٧).

تمامًا، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ۝٦٠﴾ [الفرقان:٦٠].

وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ۝١١٠﴾ [الإسراء:١١٠].

قيل: كانت العرب لا تعرف اسمه تعالىٰ: (الرحمن) حتىٰ رد الله عليهم بهذه الآية. ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية، لما قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم): لا نعرف الرحمن ولا الرحيم(١).

وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة(٢).

وروي عن الحسن رضي الله عنه قال: «الرحمن اسم لا تستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمىٰ به تبارك وتعالىٰ».

**

(**الملك**): قال الراغب: (الملك) هو التصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة العقلاء، ولهذا يقال: ملك الناس، ولا يقال ملك الأشياء.

---

(١) رواه مسلم بنحوه (١٧٨٤).

(٢) نسبه في الدر المنثور (٥/ ٣٧٦) لابن المنذر عن مجاهد.

وقوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة:٤]، فتقديره الملك في يوم الدين، وذلك كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۝١٦﴾[غافر:١٦].

والملك الحق الدائم لله، فلذلك قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۝١﴾ [التغابن:١]، وقال: ﴿مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ۝٢٦﴾[آل عمران:٢٦]، والملك ضبط الشيء المتصرف بالحكم.

وقال الحافظ ابن كثير: (والملك) في الحقيقة هو الله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ۝٢٣﴾[الحشر:٢٣][(١)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله)[(٢)].

وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: (يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك. أين ملوك الأرض؟. أين الجبارون؟. أين المتكبرون؟)[(٣)].

وفي القرآن العظيم: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾[غافر:١٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦).

(٢) رواه البخاري (٥٨٥٣)، ومسلم (٢١٤٣).

(٣) رواه البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٨).

فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ ۝٢٤٧﴾ [البقرة:٢٤٧].

واسمه تعالى (الملك) من الأسماء الأصول التي تدور في فلكها كثير من الأسماء الحسنى كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعال، مالك الملك، المقسط، الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

والخلاصة: أن الملك الآمر الناهي، صاحب السلطان القاهر والمشيئة النافذة الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء سبحانه وتعالى.

**

(**القدوس**) هو المقَدَّس المعَظَّم المنَزَّه عن كل نقص وعيب، فيدخل في ذلك تنزيهه سبحانه عن كل ما يضاد صفات كماله التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ من الجهل والعجز والموت والفقر والإعياء والتعب والضلال والنسيان والسفه والجور والسِّنة والنوم، إلى غير ذلك من صفات النقص التي يتنزه الله عن الاتصاف بها.

ويدخل في ذلك أيضًا تنزيهه عن الشريك له في ربوبته أو ألوهيته، وعن الظهير الذي يعاونه في خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها، وعن الشفيع الذي يشفع عنده بغير إذنه، وعن الزوجة والولد، وعن أن يكون له ولي من الذل والحاجة، تعالى الله عن ذلك كله.

ويدخل فيه أيضًا تنزيهه عن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به، بل يجب حفظ صفات كماله ونعوت جلاله عن تشبيهها بصفات المخلوقين .

فلا يقال مثلا: علم الله أو قدرة الله كعلم الخلق أو قدرتهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، فإنه كما أن ذاته لا يشبهها ذوات المخلوقين فصفاته لا يشبهها صفاتهم، ومن قال بهذا فإنه إنما يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده.

كما يجب تنزيهه عن المماثلة لخلقه في شيء من صفاته، يجب تنزيهه عن التعطيل، والجحد لصفات كماله التي ثبتت بالكتاب والسُّنة. فاسمه القدوس يتضمن تنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقص، متصلاً كان أو منفصلاً، وهو متضمن أيضًا لتعظيمه، فإن من برئ من صفات السوء والعيب، لابد أن يكون حائزًا لصفات الكمال والعظمة . بل إن إثبات الكمال والعظمة هو المقصود الأصلي من سائر التنزيهات فإن التنزيه لا يراد لذاته بل يقصد به حفظ كماله سبحانه عن الظنون السيئة كظن الجاهل .

وعلى الجملة فإذا قال العبد مثنيًا على ربه (سبحان الله) أو (تقدس الله) أو (تعالى الله) ونحو ذلك كان جامعًا بين الأمرين: السلامة من كل نقص، وإثبات كل كمال.

**

(**السلام**) ورد اسمه تعالى (السلام) عقيب اسم (القدوس) في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ﴾ [الحشر:٢٣].

وفي الصحيح أنه ﷺ كان إذا سلم قال: (**اللَّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام**)[1].

وفيه أيضًا: أنهم كانوا يقولون في التشهد «السلام على ربنا» فنهاهم النبي ﷺ وقال لهم: (**إن الله هو السلام**)[2].

ومعنى اسمه تعالى «السلام» قريب من معنى اسمه القدوس، فإن معناه السلامة من كل شائبة نقص، فيتناول سلامته – سبحانه – من الشريك والند والكفء والسميّ والظهير والولي والشفيع والشبيه والنظير إلى آخر ما ذكرناه آنفا عند شرح «القدوس» والسلام على هذا التفسير يكون صفة ذات.

وقيل معناه: الذي يسلم على عباده المؤمنين في الجنة كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب:٤٤]، وكما قال: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨].

وقيل معناه: الذي يسلم عباده المؤمنين من المعاطب، ويحفظهم مما يسوءهم.

---

(١) رواه مسلم (٥٩١)، (٥٩٢).

(٢) رواه مسلم (٤٠٢).

وقيل معناه: الذي يسلم من حيفه وظلمه.

والسلام على هذه التفسيرات - كلها - يكون صفة فعل.

**

(المؤمن): اسم فاعل من قولهم: آمنه يؤمنه بمعنى أزال مخاوفه، ومنه آمن به بمعنى صدق لأن من صدقته فقد أمنته التكذيب والمخالفة. وإذا عدي الفعل آمن بالباء كان معناه التصديق بالخبر نفسه، كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥].

وإذا عدي باللام كان المراد به تصديق المخبر كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[الشعراء:١١١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[يوسف:١٧].

ويجوز إطلاق هذا الاسم على الله - عز وجل - بالمعنيين جميعًا إفادة الأمن أو التصديق، فبالمعنى الأول: ما رواه الضحاك عن ابن عباس أنه هو الذي أمن خلقه أن يظلمهم. وبالمعنى الثاني ما رواه قتادة أنه هو الذي آمن بقوله: أنه حق، أو الذي يصدق عباده المؤمنين إيمانهم به . أو الذي يصدق رسله بالمعجزات الشاهدة بصدقهم فيما يبلغونه عنه.

قال أبو حامد في (المقصد الأسنى): المؤمن هو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه، وسده طرق المخاوف، ولا يتصور أمن إلا في محل المخاوف، ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك.

والمؤمن المطلق هو الذي لا يتصور أمن وأمان إلا ويكون مستفادًا من جهته وهو الله تعالى.

والعبد ضعيف في أصل فطرته وهو عرضة للأمراض والجوع والعطش من باطنه، وعرضة للآفات المحرقة والمغرقة والجارحة والكاسرة من ظاهره. ولم يؤمنه من هذه المخاوف إلا الذي أعد الأدوية دافعة لأمراضه، والأطعمة مزيلة لجوعه، والأشربة مميطة لعطشه، والأعضاء دافعة عن بدنه، والحواس جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته، ثم خوفه الأعظم من هلاك الآخرة، ولا يحصنه عنه إلا كلمة التوحيد، والله تعالى هاديه إليها ومرغبه فيها.

والمؤمن من الأسماء المشتركة بين الله عز وجل وبين خلقه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[غافر:٢٨]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن:٢].

وهو يطلق على المخلوق بكل من المعنيين أيضًا . فهو مؤمن بصدق ما يجب التصديق به من أخبار الله ورسوله، ويقابله الكافر. وهو مؤمن بمعنى مزيل لأسباب الخوف المتوقعة من جانبه؛ فالناس يأمنون بوائقه، وقد يؤمنهم أيضًا مما يتوقعون من ظلم غيره وبطشه إن كان ذا عدل وسلطان.

وأحق العباد باسم المؤمن من كان سببًا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله، والإرشاد إلى سبيل النجاة، وهذه وظيفة الأنبياء والعلماء.

(**المهيمن**): قال ابن عباس وغير واحد من السلف أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم بمعنى: أنه رقيب عليهم فهو كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ [المجادلة:٦]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝﴾[يونس:٤٦].

والحق أن معنى (المهيمن) أوسع من معنى (الشاهد) فهو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، باطلاعه واستيلائه وحفظه؛ لأنه لا يقال مهمين إلا لمن كان مشرفا على الأمر، مستوليًا عليه، حافظًا له، فالإشراف يرجع إلى كمال العلم، والاستيلاء على المال والقدرة، والحفظ إلى كمال التدبير والرعاية.

وهذه المعاني الثلاثة لا تجتمع لأحد على الإطلاق، وما الكمال إلا لله تعالى وحده.

وأما إخباره تعالى عن القرآن بأنه مهيمن على ما سبقه من الكتب، فمعناه كما قال ابن عباس وغيره أنه أمين وحاكم عليها؛ فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها باطل. والله تعالى أعلم.

❊❊

(**العزيز**): أي الموصوف بالعزة، وهي الغلبة والقهر للغير، والامتناع ممن يريده .

قال ابن كثير: أي الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا

ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه[1].

وأقسم سبحانه بها كما في حديث الشفاعة: (وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله)[2].

وأخبر القرآن عن إبليس أنه قال متوعدًا بني آدم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: (بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه. فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك ولكن لا غنى عن بركتك)[3].

وفي حديث الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لمن كان به وجع: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)[4].

والعزة تأتي بمعنى الغلبة والقهر، من عز يُعز بضم العين في المضارع، يقال: عزه إذا غلبه. وتأتي بمعنى القوة والصلابة، من عز يعز

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٦).

(٢) رواه البخاري (٧٠٧٢).

(٣) رواه البخاري (٢٧٥، ٣٢١١، ٧٠٥٥).

(٤) رواه مسلم (٢٢٠٢).

بفتحها، ومنه قولهم: أرض عزاز، وتأتي بمعنى النفاسة والقدرة وعلو القدر من عز يعز بكسرها. وهذه المعاني كلها للعزة، ثابتة لله عز وجل .

قال أبو حامد الغزالي: «العزيز» : هو الخطير الذى يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه . فما لم تجتمع له هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز . فكم من شيء يقل وكم من شيء يعظم خطره، ويكثر نفعه، ولا يوجد نظيره، ولا يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزًا، كالشمس مثلاً، فإنها لا نظير لها، والأرض كذلك، والنفع عظيم في كل واحد منهما، والحاجة شديدة إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة؛ لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتها، فلا بد من اجتماع المعاني الثلاثة »[1] .

**

(**الجبار**) صيغة مبالغة من الجبر، وهو يطلق بمعنيين الإرغام والقهر ونفوذ المشيئة، وعلى هذا يكون معنى الجبار الذي يجبر خلقه على ما يشاء بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يخرج عن قبضته وقهره، فما شاء كان، وإن لم يشأ لم يكن وإن شاءوا.

وثانيهما: إصلاح الخلل ورأب الصدع، من قولهم: جبر الله كسرك، ومنه سميت (الجبيرة) التي تشد على العضو المكسور، وعلى هذا يكون

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ٧٣ .

معنى الجبار المصلح أمور خلقه، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم.

**

(**المتكبر**) قيل: معناه المترفع عن السوء والنقص، وقيل: المتعاظم الذي يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته . ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، كما جاء في الحديث الصحيح: (العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته)[1] ولهذا ورد أن الكبر شعبة من الشرك.

ولا متكبر بحق إلا الله - عز وجل - لأن رؤيته من دونه حقيرًا بالإضافة إليه رؤية صادقة مطابقة للواقع.

وأما غيره فلا حق له في التكبر لأن زعمه العظمة والكبرياء لنفسه دون غيره، زعم باطل . ولهذا وردت الآيات الكثيرة في ذم المتكبرين.

**

(**الخالق البارئ المصور**) قال ابن كثير: (الخلق التقدير، والبرء هو الفري، وهو التنفيذ، وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود . وليس كل من قدر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده، سوى الله - عز وجل - .

قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفـــري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

---

(١) أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٨، ٣٧٦، ٤٤٢).
ورواه مسلم بنحوه (٢٦٢٠).

أي أنت تنفذ ما خلقت أي قدرت بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد.

فالخلق التقدير، والفري التنفيذ.

ومنه يقال: «قدر الجلاد ثم فرى» أي قطع ما قدره بحسب ما يريده.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤]، أي الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، على الصفة التي يريد والصفة التي يختار كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الإنفطار:٨].

ولهذا قال: المصور، أي الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها»[١].

والحاصل أن هذه الأسماء الثلاثة ليست مترادفة على معنى واحد، بل لكل منها معنى يخصه، وهي متكاملة لابد منها جميعًا على هذا الترتيب.

فالخلق أولاً لأنه تقدير الأشياء على إحكام واستواء، ثم البرء ثانيًا لأنه الإبراز والإيجاد على وفق التقدير السابق، ثم التصوير ثالثًا لأنه اختراع صور الأشياء وترتيبها في الوجود على أحسن الوجوه.

ويضرب الغزالي لذلك مثلاً بالبناء فإنه يحتاج إلى مقدر ما لابد منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها، وهذا يتولاه المهندس، فيرسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى بناء يتولى الأعمال

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٤).

التي عندها تحدث حصول الأبنية، ثم يحتاج إلىٰ مزين ينقش ظاهره، ويزين صورته، ويتولاه غير البناء . فهذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير، أن تقوم بها عدة أشخاص . وليس كذلك أفعال الله - عز وجل - بل هو وحده المقدر والموجد والمزين، فهو الخالق البارئ المصور، والله أعلم(١).

**

(الغفار) صيغة مبالغة من الغفر بمعنىٰ الستر . ومنه سمي المغفر الذي يلبس في الرأس عند الحرب لأنه يسترها من الضرب . فمعنىٰ الغفار الكثير المغفرة لذنوب عباده وسيئاتهم كما قال تعالىٰ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[طه:٨٢].

وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر:٥٣].

وهذه المغفرة تتسع لما شاء من الذنوب إلا الشرك بالله - عز وجل - فهو الذنب الذي لا يغفر، والكسر الذي لا يجبر .

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨].

وفي الحديث القدسي: (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ٧٥ .

والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم)[١].

وفي الحديث الآخر: (يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا غفرت ما كان منك ولا أبالي)[٢].

ولكن سعة هذه المغفرة يجب أن لا تجرئ العبد على معصية الله - عز وجل - بل يجب أن يكون على حذر، وأن لا يأمن مكر الله، فإنه لا يدري إن كان ممن سيدخل بحبوحة المغفرة أو مضيق المؤاخذة. فعليه أن يكثر من الاستغفار، ويقدم التوبة النصوح التي لا يبقى معها في القلب عزم على العودة إلى الذنب أو الإصرار عليه، بل يكثر الندم والبكاء كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾[التحريم:٨].

والاستغفار الذي هو طلب المغفرة من أفضل الذكر، فهو اعتراف من العبد على نفسه بالتقصير والعجز المستوجب للمؤاخذة، واعتراف منه بأنه كذلك لا يغفر الذنب إلا الله، ففيه إظهار لمنتهى الذل والعبودية مع الإقرار لله بعزة الإلهية. ولهذا ورد في فضل الاستغفار كثير من الآيات والأحاديث.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) الترمذي (٣٥٤٠) عن أنس. ومسلم بنحوه (٢٦٨٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

وقد ورد أنه يجلو صدأ القلب كما يجلو الكير صدأ الحديد[١].

وفي الحديث الصحيح سيد الاستغفار أن يقول العبد: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة في المجلس الواحد يقول: (اللهم اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور)[٣].

**

(**القهار**): صيغة مبالغة من القهر وهو الإرغام والإذلال بحيث لا يبقى للمقهور مكنة للتخلص من آثاره، فهو سبحانه وتعالى القاهر فوق عباده، يجبرهم على ما أراد، ويجري عليهم أحكامه القدرية وسنته الكونية في الإحياء والإماتة، والبسط والقبض، والصحة والمرض، واللذة والألم، والقدرة والعجز، والعزة والذل، والإعطاء والمنع، وغير ذلك مما لا يستطيعون منه فكاكًا، ولا له تبديلا، فلا موجود إلا وهو مسخر تحت قهره وقدرته عاجز في قبضته.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦٨٩٤)، وفي الصغير (٥٠٩)، وفي الدعاء (١٧٩١).
قال في المجمع (١٠/ ٢٠٧): فيه الوليد بن سلمة الطبراني، وهو كذاب.

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٣).

(٣) مسند أحمد (٢/ ٢٨٤)، وأبو داود(١٥٠٢)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤).

وهو سبحانه يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه، فيديل لأوليائه منهم، وينصرهم عليهم، ويأخذهم في الدنيا بالمثلات وعذاب الخزي وفي الآخرة يضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير.

وقد ورد هذا الاسم الجليل في القرآن دائمًا مقرونًا بكلمة التوحيد إشارة إلى أنه القاهر لعباده وحده، لا قاهر لهم سواه . قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام في حديثه مع صاحبي السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝﴾ [يوسف:٣٩، ٤٠].

وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝﴾ [ص:٦٥، ٦٦].

وقال تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝﴾ [الزمر:٤].

**

(**الوهاب**): الهبة العطية الخالية عن العوض . فمن كثرت عطاياه بهذه الصفة يسمى جوادًا وهابًا . ولن يتصور الجود والعطاء والهبة الحقيقية إلا من الله تعالى، فهو الذى يعطي كل محتاج إليه لا لعوض، وهو مفيض الوجود على كل موجود، وكل ما بالعباد من نعمة فهي من

فيض جوده قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩،٥٠].

وقال تعالىٰ علىٰ لسان الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

وقال سبحانه علىٰ لسان سليمان بن داود عليهما السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

وفي الحديث الصحيح: (إن يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة الليل والنهار ألم تروا إلى ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يده)(١).

وفي الحديث القدسي: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)(٢).

والهبة تشمل النعم المادية المحسوسة من الأموال والبنين والحروث والأنعام وأنواع الرزق التي يتفضل الله بها على عباده، وتشمل الهبات

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٣٧ تحت ٩٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

الـروحية، وهو ما يجعله الله في القلـوب من الرحمة والمحبة والإخلاص والتقوىٰ، وما يفـتحه علىٰ عبده مـن الفهوم والمعارف الـتي يتخلص بها من ظلمات الجهل والـضلال. فنسأل الله أن يهب لنا مـن رحمته ما يرينا الحق حقًا فنتبعه، والباطل باطلاً فنتجنبه إنه ولي المتقين.

**

(**الرزاق**): وهو اسم فاعل يدل علىٰ الكثرة فهو أبلغ من رازق مأخوذ من الـرزق بفتح الراء الـذى هو الـمصدر وأمـا الرزق بـكسرهـا فهو اسم لـنفس الشيء الذى يرزقه لعباده الـذى يرزق الله به العبد . فمعنىٰ الرازق الكثير الرزق لعباده الذى لا تـنقطع عنهم إمداده وفواضله طرفة عين كما قال ﷺ : (إن يمين الله ملأىٰ لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، ألم تروا إلىٰ ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض مما بيده)[١] .

أو كما قال.

والـرزق كالخلق صفة الفعل المـتعدية التي تقتـضي رازقًا، وهو شأن من شئـون ربوبيته - عز وجل - التي تتناول أنواع التدبير المختلفة، من إحياء وإماته، وقبض وبسط ونحو ذلك .

والحق في صفات الأفعال هي أنها تقوم بذاته سبحانه، لأنها صفات تـأثير، والتأثـير معنىٰ يقـوم بالمـؤثر . ولكنهـا ليست لازمـة للذات أزلاً وأبدًا، بل مـتعلقة بمـشيئته وقـدرته ما شـاء متىٰ شـاء وكيف يشـاء، وهو

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٣٧ تحت ٩٩٣).

يرزق كذلك عباده بما يشاء من أرزاق متى شاء وكيف شاء .

وإذا أردت أن تصور لنفسك سعة رزق ربك ومبلغ فيضة وإحسانه، على قدر ما يطيقه عقلك الضئيل، ويسعه علمك القاصر، فتأمل كم من المخلوقات تعيش في البر من إنس وجن وحيوان وحشرات ووحش وطير؟ وكم من الأسماك والحيتان يحويها البحر؟ ثم تأمل كيف سواها ربنا - جل وعلا - وأعطى كل نوع منها الصورة التي هو عليها، ثم جعل لكل نوع منها ما يصلحه ويناسبه من غذاء، ثم هداه إلى طلبه، وأعطى كلاً منها من الآلات والوسائل ما يمكنه من تحصيل قوته وجلب غذائه .

ثم قدر في نفسك كم من ملايين الأطنان من الغذاء تحتاج هذه المخلوقات في كل وجبة طعام ؟ إنه ولا ريب أمر يضل فيه الفكر، ولا يملك إلا الإذعان والتسليم بقدرة اللطيف الخبير، الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ومن آثار فضله ورحمته أن تكفل بتوصيل الرزق إلى ما يعجز عن تحصيل رزقه بنفسه لضعف آلته وقلة حيلته، فرزق الأجنة في بطون أمهاتها بأن أجرى لها من دم الأمهات غذاءها، ثم ألهمها بعد الولادة أن تمص أثداءها فيجري لها من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

وإذا كان الرزق شأنًا من شئون الربوبية ومظهرًا من مظاهرها، فلا يصح أن ينسب إلى غير الله عز وجل، فلا يسمى غيره رازقًا كما لا يسمى خالقًا . قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن

شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ [الروم:٤٠].

وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا ولا يستطيعون .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام:١٤].

وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:١٩-٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل:٥٣-٥٦].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت:١٧] .

ويطول بنا القول لو أردنا استقصاء ما في الكتاب العزيز من آيات تدل على انفراده سبحانه برزق خلقه ولكننا نختم ذلك بهذه الآيات الجامعة من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

[الذاريات:٥٦-٥٨].

وقد جاء الحديث القدسي الصحيح، قوله تعالى: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم)[1].

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد أجرى عادته أن يرزق العباد بعضهم من بعض، وأن يقسم بين الناس معيشتهم في الحياة الدنيا ويرفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا، فلا ينبغي أن نتوهم من هذا أن أحدًا من العباد يرزق أحدًا، بل الأرزاق كلها بيد الله وحده، فهو خالق الأرزاق والمرتزقة، وموصلها إليهم، وخالق أسباب التمتع بها، فالواجب نسبتها إليه وحده وشكره عليها، فهو موليها

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وواهبها . كما كـان ﷺ يقول إذا أصبح الصبح وإذا أمسىٰ: (اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك، فلك الحمد ولك الشكر)[١] .

وفي الحديث القـدسي يقول الله عز وجل: (إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي)[٢] .

واعلم أن: الـرزق اسم عام لكل مـا ينتفع به الـعباد من أرزاق مـادية تحتاج إليها الأبدان في نموها وحفظها: من الأطعمة والأقوات الحيوانية والنباتيـة وأنواع الأشربة . كـذلك من ماء ولبن وعـسل، وأنواع الملابس والأغطيـة والأثاث التـي تتخذ من الأصـواف والأوبار والجلـود والقطن والكتان والحرير .

وقد استـطاع الإنسان في هذا العصر أن يـرتقي كثيرًا في هذه النـاحية المادية، وأن يستخرج كثيرًا من منافـع الأشياء وخواصها، وأن يصنع من الآلات مـا يسر له سـبيل العيش علىٰ الأرض، ووفر له كثيرًا مـن مطالبه وحاجاته.

وأرزاق أخرىٰ معنويـة: وهي ما ينـزله سبحانه من الـشرائع والكتب علىٰ رسله من البـشر لهـداية الخلق، وإرشـادهم إلىٰ مـا فيه صلاحهم وخيرهم، وتكميل فطرهم بالعلوم النافعة والمعارف الصحيحة، وما ينزله

(١) أبو داود (٥٠٧٣)، والنسائي في الكبرىٰ (٩٨٣٥)، وابن حبان (٨٦١).

(٢) الطبراني في مسند الشاميين (٩٧٥)، والبيهقي فـي الشعب (٤٥٦٣)، وابن عساكر (١٧/ ٧٧)، والفردوس (٤٤٣٩).

كذلك على قلوب أوليائه من السكينة، وما يفتح عليهم من أبواب المعرفة به سبحانه، وبأنواع الحقائق التي تزيل عنهم غشاوة الجهل، وتبدد عنهم غياهب الخرافة والوهم.

ولا شك أن هذا كما يقول الغزالي[1]: أشرف الرزقين؛ فإن ثمرته حياة الأبد، وثمرة الرزق الظاهر قوة الجسد إلى مدة قريبة الأمد . والله المتولي الخلق بالرزقين، والمتفضل بالإيصال إلى كلا الفريقين، ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بعباده لخبير بصير.

**

(**الفتاح**): ومن أسمائه الحسنى سبحانه «الفتّاح» وقد ورد في القرآن مرة بلفظه في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[سبأ:٢٦].

ومرة بصيغة التفضيل في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾[الأعراف:٨٩].

والفتح في كلتا الآيتين بمعنى الحكم، وهو أحد المعاني التي تستعمل فيها هذه المادة.

قال صاحب «النهاية»: (في أسماء الله تعالى «الفتاح» هو الذى يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، وقيل معناه الحاكم بينهم . يقال: فتح

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ٨٤ .

الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهما، والفاتح الحاكم، والفتاح من أبنية المبالغة)[١].

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية في قصيدته «النونية»[٢]:

وكذلك الفتاح من أسمائه ... والفتح في أوصافه أمران

فتح بحكم وهو شرع إلهنا ... والفتح بالأقدار فتح ثان

والرب فتاح بذين كليهما ... عدلاً وإحسانًا من الرحمن

ومعنى هذه الأبيات أن الفتح الذي هو صفة الرب - جل شأنه - أحدهما: فتحه بحكمة الديني، وهو هدايته لعباده، وشرعه لهم على ألسنة رسله جميع ما يحتاجون إليه من العقائد الصحيحة، والشرائع المستقيمة، والأخلاق الكريمة، ويدخل في هذا فتحه الجزائي بين الرسل والمكذبين لهم حيث ينجي الرسل وأتباعهم ويهلك ويخزي أعداءهم. وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفى كل عامل جزاء عمله.

والثاني: فتحه بحكمه القدري، وهو ما يجري على عباده مما سبق به قدره من الخير والشر، ومن النفع والضر، وأنواع الابتلاء كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ

(١) انظر: شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٣٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٠٧).

بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾[فاطر:٢].

فهو سبحانه الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه أبواب نقمته وسخطه، وذلك كله بفضله وعدله.

**

(**العليم**): ومن أسمائه الحسنى «العليم» وعلمه سبحانه محيط بالأشياء كلها، ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها، أولها وآخرها، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

وليس علمه - سبحانه - قاصرًا على ما وجد أو ما يقدر وجوده من الممكنات بل يعلم جميع الواجبات والممتنعات والممكنات، ما وجد منها في الماضي وما سيوجد في المستقبل، وما لم يقدر وجوده لعدم تعلق مشيئة الله به .

أما الواجبات فإنه سبحانه يعلم ذاته الكريمة وبقوته المقدسة التي لا يجوز انتفاؤها بحال، بل يجب وجودها فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه كما أثنى هو على نفسه.

وأما الممتنعات فإنه يعلمها حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها فرضًا . كما أخبر سبحانه وتعالى عن الآثار المترتبة على وجود آلهة معه في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[الأنبياء:٢٢].

فهذا فساد لم يقع لأنه ترتب على شيء ممتنع، وهو وجود إله مع الله، ولكن الله يعلم أن لو وقع هذا الممتنع فرضًا لوقع هذا الفساد.

ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٩١].

فذهاب كل إله بخلقه وعلو بعضهم على بعض كان يترتب على وجود آلهة معه بحيث لو حصل هذا فرضًا لحصل ذاك، وعلمه سبحانه محيط بهذا وذاك.

وأما الممكنات وهي التي يجوز في العقل وجودها وعدمها فهو يعلم كما قلنا ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده. وعلمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان.

فهو يعلم - كما قدمنا - الغيب والشهادة والظاهر والباطن والجلي والخفي، ولا يطرأ على علمه - سبحانه - ما ينافيه من غفلة أو ذهول أو ضلال أو نسيان، كما قال تعالى على لسان كليمه موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

وكما أن علمه محيط بجميع ما في العالم علويه وسفليه من المخلوقات بذواتها وأوصافها وجميع أمورها فهو يعلم - أيضًا - ما كان منها في الماضي وما يكون في المستقبل الذي لا نهاية له، ويعلم ما لم يكن منها لو كان كيف يكون. ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم

وبعدما يميتهم، قد أحاط علمه بأحوالهم كلها خيرها وشرها، وجزاء تلك الأعمال، وتفاصيل تلك الأجزية في دار القرار.

والدليل العقلي على علمه تعالى أمور:

أولاً: أنه يستحيل إيجاد الأشياء مع الجهل بها؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم العلم بالمراد كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

ثانيًا: ما في المخلوقات من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة، يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير ذي علم.

ثالثًا: في المخلوقات من هو عالم، والعلم صفة كمال، فلو لم يكن - سبحانه - عالمًا لكان فى مخلوقاته من هو أكمل منه.

رابعًا: كل علم فى المخلوق إنما استفاده من خالقه، وواهب الكمال أحق به، وفاقد الشيء لا يعطيه. فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا، وقهر كل مخلوق عزة وحكمًا.

**

ومن أسمائه الحسنى سبحانه ما لا يذكر وحده منفردًا عن قرينه، بل لا يذكر إلا مقترنًا به . وذلك مثل القابض والباسط، والخافض والرافع، والمعز والمذل، والضار والنافع، والمعطى المانع .... إلخ

وذلك لأن الكمال لا يحصل إلا باجتماعهما، فإذا أفرد أحدهما عن مقابله فات هذا الكمال. وهذه كلها صفات أفعال متعدية إلى الخلق

تتعلق بها مشيئة الله وقدرته على وفق علمه وحكمته .

ولهذا يعبر عنها كثيرًا في القرآن بصيغة الفعل كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[البقرة:٢٤٥].

وكقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

[آل عمران:٢٦].

أما القبض والبسط فيتعلقان بكل ما من شأنه أن يقبض أو يبسط، وذلك مثل الأرزاق، فهو سبحانه يفيض الرزق ويقدره على من يشاء من خلقه، ويبسطه ويوسعه على من يشاء كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[سبأ:٣٦].

وكقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[الشورى:١٢].

وكقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[الشورى:٢٧].

ومنها قبضه - سبحانه - لأرواح العباد عند الموت، وبسطه لها في الأجساد عند الحياة، فهو القابض والباسط لذلك على الحقيقة، وإن كان قد وكل ملائكة بإخراج الأرواح وتوفيها كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾[السجدة:١١]، وقوله: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾

[الأنبياء:٢٧].

ومنها قبضه الرحمة وإمساكها عمن يشاء، وبسطها وفتحها على من يشاء، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[فاطر:٢] .

ومنها قبضه لقلوب أعدائه من الكفار والمجرمين فيضيقها حتى لا تتسع لقبول شيء من الخير والهدى، وبسطه لقلوب أحبابه وأوليائه بما يودعها من معاني صفاته وأسمائه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[الأنعام:١٢٥].

وأما الخفض والرفع فهما - كذلك - يتعلقان بكل ما من شأنه أن يخفض أو يرفع، فهو - سبحانه - يخفض أعداءه من الكفار والمجرمين بالإذلال والإهانة والإشقاء والإبعاد، ويرفع أولياءه من المؤمنين المتقين بالتكريم والإعزاز والتقريب والإسعاد .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[المجادلة:١١].

فهو سبحانه بيده الملك يخفض ويرفع، فلا رافع لمن خفضه الله، ولا خافض لمن رفعه.

وهو المعز لأهل طاعته بالعز الحقيقي الذي لا يشوبه ذل، فإن المطيع لله عزيز وإن كان فقيرًا محرومًا ليس له أنصار ولا أعوان .

وهو المذل لأهل معصيته وأعدائه ذلاً في الدنيا والآخرة، فإن العاصي وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإن لم يشعر به لانغماسه في الشهوات. فالعز كل العز في طاعة الله - عز وجل - والذل كل الذل في معصيته. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾[المنافقون:٨].

وهو سبحانه المانع المعطي، فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى.

ويجب أن يعلم أن هذه الأمور كلها تابعة لعدله وحكمته وحمده، فإن له سبحانه الحكمة البالغة في خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما أن له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له في الخير، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله وبشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه - سبحانه - هو المنفرد بهذه الأمور كلها، وكلها جارية تحت أقداره فإن الله جعل لرفعه وإعطائه وإكرامه أسبابًا، وجعل لضد ذلك من الخفض والإهانة والمنع أسبابًا من قام بها ترتبت عليها مسبباتها. وكل ميسَّرٌ لما خلق له.

أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة.

وهذا يوجب على العبد القيام بتوحيد الله تعالى، والاعتماد عليه في تحصيل ما يجب، مع الاجتهاد في فعل الأسباب النافعة، فإنها محل

حكمة الله تعالى . والله أعلم.

**

من أسمائه الحسنى سبحانه (السميع و البصير) وكثيرًا ما يرد هذان الاسمان الكريمان مقترنين في القرآن العظيم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء:٥٨].

وكقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١].

وكقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة:٧].

والحكمة في مجيئهما هكذا مقترنين غالبًا، أن كلاً منهما دال على صفة من صفات الإدراك، فالسميع دال على صفة السمع التي تدرك بها المسموعات من الأصوات والكلمات، والبصير دال على صفة البصر التي تدرك بها المرئيات من الأشخاص والألوان.

والسميع مبالغة من اسم الفاعل الذي هو سامع، فمعناه الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع مهما دق وخفي، بل يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا

هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة: ٧].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ سمع قومًا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال: (**أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعوا أصمًا ولا غائبًا، ولكن سميعًا بصيرًا**)(١).

وسمعه تعالى نوعان: أحدهما: سمع عام يتعلق بكل مسموع من الأصوات والأقوال لا يخفى عليه شيء منها؛ سواء كان محبوبًا له أم مكروهًا، مرضيًا عنده أو مسخوطًا.

والثاني: سمع خاص يتعلق بالإجابة لدعاء الداعين، وشكاية المضطرين، وضراعة المبتهلين. ومن هذا النوع قوله تعالى على لسان أم مريم عليهما السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٥].

وقوله على لسان خليله إبراهيم عليه وعلى سائر الرسل أتم الصلاة وأزكى التسليم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فالسمع هنا في كلتا الآيتين إنما هو سمع القبول والإجابة للدعاء.

ومنه أيضًا قول المصلي حين يرفع من ركوعه: «سمع الله لمن حمده»

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤).

استجاب له وقبل حمده.

والله سبحانه يصغي إلى بعض الأصوات ويحب سماعها، فقد جاء في الحديث الصحيح: (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت بالقرآن يتغنى به)[١] .

ومعنى أذن: أصغى واستمع .

وينبغي أن يعلم أن سمعه تعالى للأصوات إنما هو بصفة قائمة به، بها يدرك الأصوات والكلمات، ويميز بينها، لا أنه يسمع بذاته كما تزعم المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات.

وروى البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾[النساء:٥٨]، فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه[٢].

والقصد من ذلك واضح لا خفاء فيه، وهو تنبيهنا على أنه سبحانه يسمع بسمع، ويرى بعين، كما نسمع بآذاننا ونرى بأعيننا لكن السمع ليس كالسمع ولا العين كالعين إذ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾[الشورى:١١].

---

(١) رواه البخاري (٧٥٤٤)، ومسلم (٧٩٢).

(٢) الأسماء والصفات (٣٩٠).

وسمعه تعالى يتعلق بصوت نفسه الذي هو غير مخلوق كما يتعلق بأصوات المخلوقين، فهو إذا قرأ بصوت نفسه سمعه من نفسه كما يسمع غيره من كلامه، وإذا قرأه العباد بأصواتهم سمعه منهم كما يسمع غيره من كلامهم.

وأما البصير فهو فعيل، بمعنى مبصر. ومعناه الذي يشاهد كل شيء من المرئيات ويراه، فلا يعزب عنه ما تحت الثرى، ولا يحجب رؤيته جدار ولا أستار، ولا ينفع معها تخف ولا استتار. قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾[الرعد:١٠].

يعني أنه يستوي عند سمعه إسراركم بالقول وجهركم به، ويستوي عند بصره استخفاؤكم في ظلمة الليل وسروبكم أي ظهوركم بالنهار.

وقال تعالى مخاطبًا الكفار الذين كانوا يستترون بأعمالهم ظنًا منهم أن الله لا يراهم: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٢٣﴾[فصلت:٢٢،٢٣].

واعلم أن كلا من السمع والبصر وإن كان أزليا بمعنى القدرة عليه، لكنه بالفعل حادث يتجدد في ذاته سبحانه بحسب تجدد المسموعات والمبصرات، فهو إذا خلق المخلوقات رآها، ويسمع أصوات عباده حين يتكلمون بها، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران:١٨١].

وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ﴾[الزخرف:٨٠].

وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وقال في شأن الرؤية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾[البقرة:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾[التوبة:١٠٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[الشعراء:٢١٧-٢١٩].

ومن الجهل الفاضح ما يزعمه أرباب الكلام من أن السمع والبصر قد تعلقًا في الأزل بكل مسموع ومبصر، إذ كيف يرى الأشياء قبل أن يخلقها؟ أم كيف يسمع الأصوات التي لم توجد بعد؟ بل الحق أنه كلما خلق شيئًا رآه، وكلما حدث صوت سمعه.

وأشد من ذلك جهلاً وأعظم شناعة قولهم: إن كلا من السمع والبصر متعلق بكل موجود، فكيف يتعلق السمع بما ليس من شأنه أن يُسمع من الأشخاص والألوان، وكيف يتعلق البصر بما ليس من شأنه أن يُرى من الألفاظ والأصوات.

فانظر إلىٰ هـذا الخلط العجيب بين الصفتين وتعـدية كلا منهما إلىٰ وظيفة أخرىٰ، كأنهم ظنوا أن قصر السمع علىٰ المسموعات والبصر علىٰ المبصـرات نقص ينافي الـكمال، وهذا خبـال ما بعده خبـال؛ فإن كمال الصفة إنما هـو في إحاطتها بمدركاتها الخاصة بها بحيث لا يفوتها شيء منها، وليـس كمالها في أن تـدرك ما لا يدرك إلا بصفـة أخرىٰ، إذ لو كان الأمر كـذلك لاستغنـىٰ بإحـداهمـا عن الأخـرىٰ، ولـم يكن هـنا معـنىٰ لوجودهما معًا.

**

(الحكم): من أسمـائه الحسنـىٰ (الحكم) وقد ورد ذكـره في القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾[الأنعام:١١٤]، وهو أبلغ مـن الحاكم لأنه يـدل علىٰ تعـيينه للحكـومة واختـصاصه كما يدل علىٰ خبرته بوجود الحكم ورضىٰ كل من الخصمين بتحكيمه.

قال الراغب ما نلخصه:

« والحكم بـالشيء أن تقضي بـأنه كذلك وليس بكـذا، سواء ألزمت غـيرك أو لـم تلـزمه، قـال تعـالـىٰ: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۝٥٨ ﴾[النساء:٥٨].

وقال عز وجل: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ۝٩٥ ﴾[المائدة:٩٥].

وقـال عز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾[المائدة:٥٠].

ويقال: حاكم وحكام لمن يحكم بين الناس، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾[البقرة:١٨٨].

والحكم المتخصص بذلك فهو أبلغ، قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:١١٤].

وقال عز وجل: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥].

وإنما قال: حكمًا تنبيهًا أن من شرط الحكمين أن يتوليا الحكم عليهم ولهم وحسبما يستصوبانه من غير مراجعة إليهم في تفصيل ذلك»[١].

وهذا النص من كلام الراغب يدل علىٰ أن الحكم هو الذى يحكم بلا مراجعة في حكمه، ويكون حكمه ملزمًا، يعني أنه حكم مشفوع بالتنفيذ. ويدل عليه قوله ﷺ في دعائه: (اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيمينك ماضٍ في حكمك عدل في قضاؤك)[٢].

فوصف حكمه سبحانه بالمضاء وهو النفوذ.

قال الإمام ابن القيم: «وفرق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم، والعدل للقضاء؛ فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد، ماضيان فيه،

---

(١) المفردات ص ٢٤٨ .

(٢) أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وأبو يعلىٰ (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢).
والنص المذكور ورد بالمعنىٰ.

وهو مقهور تحت الحكمين، قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبي . لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه»[1] .

وحكمه الكوني سبحانه يتمثل في خلقه الأشياء على هذا النحو البديع المحكم، وفي إعطائه كل مخلوق صورته التي تؤهله للقيام بما نيط من وظيفة، وهدايته إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾[طه:٥٠].

ويتمثل - أيضًا- في وجوه التدبير المختلفة التي تجري على نظام الأسباب والمسببات وما بينها من روابط وعلاقات ثابتة لا تتحول ولا تزول، كما قال جل شأنه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۝﴾[الروم:٣٠].

وقال جل في علاه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝﴾[الإسراء:٧٧].

وأما حكمه الديني الشرعي فيتمثل فيما شرعه من شرائع تكفل لهم انتظام حياتهم الدنيا؛ لما تتضمنه هذه الشرائع من قواعد العدل، ووضع حدود المعاملات، وتفصيل الحقوق والواجبات.

كما تكفل لهم سعادة الآخرة إن هم قاموا بها كما ينبغي؛ لأنها متضمنة لكل ما يحبه الله ويرضاه.

وأما حكمه الجزائي فيتمثل في الدنيا في نصره للرسل وأتباعهم وجعل العاقبة لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) الفوائد: ص٢٤ .

ٱلدُّنۡيَا ﴿٥١﴾ ﴾[غافر:٥١].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[الصافات:١٧١،١٧٢].

وفي خذلانه للطغاة والظالمين وإنزال العذاب بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢].

وقال جل شأنه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾[الكهف:٥٩].

وأما في الآخرة فيتمثل في حكمه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وفي إعطائه كان عامل جزاء عمله بلا ظلم ولا تضييع، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[الزلزلة:٧،٨]، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾[الكهف:٤٩]، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٩-٤١]، ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحج:٥٦،٥٧].

وبالجملة فحكمه - تعالىٰ- متعلق بالمخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام. فهو - سبحانه - الحكيم في أحكامه القدرية

وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع: أن القدر متعلق بما كونه وقدره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه، والعبد لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه، فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضاد ذلك فقد وجد فيه الحكم القدري، فإن فعله واقع بقضاء الله وقدره، ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه. فالخير والشر والطاعات والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع الحكم الشرعي ومتعلقه.

**

(**العدل**): ومن أسمائه الحسنى كذلك (العدل)، وهذا الاسم الكريم يجيء عقيب اسمه تعالى الحكم لأنه في الحقيقة وصف له، يقال: (فلان حكم عدل) ومعناه الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم. وهو في الأصل مصدر سمي به. فوضع موضع العادل وهو أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً.

فهو سبحانه العدل في وصفه، فإن العدل صفة ذاته من حيث أنه كمال يستحيل خلوه عنه، إذ لو خلا عنه لا تّصف بضده، وهو الظلم، والظلم نقص يتنزه الله عنه. وهو سبحانه العدل في فعله فإن أفعاله كلها قائمة على العدل المطلق من حيث وضعه كل شيء في موضعه اللائق به.

ولهذا قال الغزالي: «إنه لا يعرف عدل الله تعالىٰ من لم يعرف فعله، وأنه ينبغي لمن أراد أن يفهم هذا الوصف أن يحيط علمًا بأفعال الله تعالىٰ من أعلىٰ ملكوت السماوات إلىٰ منتهىٰ الثرىٰ»[1].

وهو سبحانه العدل في قوله؛ فإن أقواله إما إخبار فهي في غاية الصدق وهو عدل . وإما أوامر ونواه وهي مشتملة علىٰ الحكمة والمصلحة والعدل، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[الأنعام:١١٥].

**

(اللطيف الخبير): ومن أسمائه الحسنىٰ سبحانه (اللطيف، الخبير) وقد جاء هذان الاسمان الكريمان مقترنين كثيرًا في القرآن الكريم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[الأنعام:١٠٣].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾[الحج:٦٣]، ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾[لقمان:١٦]، ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[الأحزاب:٣٤].

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ٩٨ .

أما اللطيف فهو اسم من اللطف، يقال لطف به وله، بفتح الطاء، يلطف لطفًا إذا رفق به، وأما لطف بالضم فهو من اللطافة بمعنىٰ الصغر والدقة.

واللطيف هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلىٰ من قدرها له من خلقه، فلا يستحق هذا الاسم علىٰ وجه الكمال إلا من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ثم يسلك في إيصالها إلىٰ مستحقها سبيل الرفق دون العنف، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل جميعًا إلا في حقه سبحانه؛ فإن الغوامض والخفيات هي في علمه كالظواهر الجليات.

وكذلك رفقه جل شأنه في الأفعال هو بالغ غاية الكمال، لأنه تابع لمعرفته بتفاصيلها وإحاطته بغوامضها.

يقول الغزالي: «فمن لطفه خلقه الجنين في بطن الأم في ظلمات ثلاث، وحفظه فيها، وتغذيته بواسطة السرة إلىٰ أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة، بل فلق البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب في الحال، ثم تأخير خلق الأسنان عن أول الخلقة إلىٰ وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن السن، ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلىٰ طحن الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلىٰ عريضة للطحن، وإلىٰ أنياب للكسر، وإلىٰ ثنايا حادة الأطراف للقطع »[1].

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ١٠١ .

ويقول العلامة ابن القيم في قصيدته النونية[1].

وهو اللطيف بعبده ولعبده واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويبدي لطفه والعبد في الغفلات عن ذا الشان

يعني أنه سبحانه يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف له في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر. وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فاللطف الذي وصفه سبحانه نوعان:

أحدهما: الخبرة التامة وإحاطة علمه بالبواطن والأسرار ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور، وما لطف ودق من كل شيء.

والثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتمم عليه نعمته ويشمله بإحسانه وكرمه، ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرىٰ، ويجنبه العسرىٰ، ويجري عليه من صنوف المحن وأنواع البلاء التي يكرهها وتشق عليه ما علم أن فيها صلاحه والسبيل إلىٰ سعادته. كما امتحن الأنبياء عليهم السلام بأذىٰ قومهم، وبالجهاد في سبيله، وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون. واعتبر في ذلك بما جرىٰ علىٰ يوسف الصديق عليه السلام من أحوال كانت في ظاهرها محنة، ولكنها

(١) انظر: شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٢٨).

في حقيقـة الأمر ألوان من البلاء والتمحيص كمـل بها، وصفا بها عنصره حتىٰ أوصلته في النهاية إلىٰ حسن العقبىٰ في الدنيا والآخرة.

يقـول الشيخ عبـد الرحمن السعدي رحـمه الله: «فكم لله من لطف وكـرم لا تدركه الأفهـام ولا تتصـوره الأوهام، وكم استـشرف العبـد علىٰ مطلـوب من مطـالب الدنـيا من ولايـة أو رياسـة أو سبب مـن الأسباب الـمحبوبة، فيصرفه الله عنها ويصـرفها عنه، رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبـد حزينًا من جهله وعـدم معرفته بربه . ولـو علم ما ذخر له في الغيب وأريد إصلاحه فيه، لحمد الله وشكـره علىٰ ذلك . فإن الله بعباده رؤوف رحيم، لطيف بأوليائه»[1].

وفي الدعاء المأثورة: (اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك، وبارك لنا في قدرك حتىٰ لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت)[2].

**

(**الخبير**) و(**العليم**) وأما الخبير فهو العليم الذي نفذ علمه إلىٰ كل خفي من الأمـور، وأحاط بتفاصيلها ودقـائقها بحيث لا يعزب عنه شيء من الوجوه الممكـنة لها، يعلم ما غاب كمـا يعلم ما حضر، ويعلم ما دق وصغر كما يعلم ما جل وكبر، فـالكل في علمه سبحانه سواء كما قال الله

(١) انظر: الحق الواضح المبين ص ٢٤٤ .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٩١)، وقال: حسن غريب.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝﴾[الرعد:٨-١٠].

ولهذا لا يجيء وصفه تعالى بهذا الوصف إلا بالنسبة للأمور التي فيها دقة وخفاء بحيث يعجز عن تناولها إدراك المخلوقين كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝﴾[الملك١٤].

وقوله: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝﴾[فاطر:١٤].

وقوله: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝﴾[التحريم:٣].

وهكذا في كل موضع ذكر فيه هذا الوصف في القرآن العظيم تجده لا يذكر إلا حيث يكون الكلام متعلقًا بالخفايا ومغيبات الأمور.

**

(الحليم) و**(العليم)** ومن أسمائه الحسنى سبحانه: (الحليم) وقد ورد في القرآن مرتين مقترنًا باسم (العليم).

أولاهما: في قوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝﴾ [الحج:٥٩].

والثانية: في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝﴾[الأحزاب:٥١].

كما ورد مقترنًا باسمه تعالى الغفور، في موضعين:

الأول: قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾ [الإسراء:٤٤].

والثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾[فاطر:٤١].

والمناسبة بين هذا الاسم الكريم وكل من هذين الاسمين ظاهرة، فإن علمه تعالى بأحوال خلقه وما ركبوا عليه من ضعف وعدم استمساك عند الشهوات يقتضي حلمه بهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، كما أن حبه سبحانه للمغفرة يوجب كذلك إمهالهم عسى أن يتوبوا فيتوب الله عليهم.

ومعنى الحليم كما قال ابن الأثير: «هو الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم[1]».

فهو سبحانه يشاهد معاصي العصاة، ويرى أنواع المخالفات والجرائم التي يرتكبونها ثم لا يسارع إلى مؤاخذاتهم والانتقام منهم مع استحقاقهم لذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن

---

(١) النهاية (١/ ٤٣٣ - ٤٣٤).

دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[النحل:٦١].

وهذا الاسم الكريم قد يقع وصفًا لبعض العباد، كما قال تعالىٰ عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤].

وكما قال عن ولده إسماعيل: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات:١٠١].

ولكن هذا اشتراك في الاسم فقط لا يقتضي أن حلمهم كحلمه بل حلمه وسع السماوات والأرض وجميع ذنوب العباد وجرائمهم، فلا أحد أحلم منه سبحانه، كما لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ سمعه منه، وكما لا أحد أغير منه.

وهكذا يقال في كل الأسماء المشتركة: أن الثابت لله عز وجل منها هو ما يليق به من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . والثابت منها للمخلوق هو ما يليق به من الضعف والنقص بحيث لا توهم مماثلة أصلاً بين صفة المخلوق وصفة الخالق.

**

(**العظيم**): ومن أسمائه الحسنىٰ (العظيم) وقد ورد مقترنًا باسمه تعالىٰ: (العلي)، في آية الكرسىٰ التي هي سيدة آي القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة:٢٥٥].

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾[الشورى:٤].

ولا يخفىٰ ما بين صفتي العلو والعظمة من مناسبة، فالشيء كلما علا علىٰ غيره كان أعظم منه، ولهذا كان العرش أعظم من الكرسي، لأنه فوقه حتىٰ إن الكرسي في جوفه كحلقة في فلاة، قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[البقرة:٢٥٥].

فما ظنك بعظمة من العالم كله من عرشه إلىٰ فرشه بين يديه كخردلة في كف أحدنا ؟

إنها عظمة تتقاصر العقول عن إدراك كنهها، والإحاطة بها، وبحسبنا أن نعلم أن العظمة المطلقة التي لا يتصور لها نهاية ولا حد تقف عنده، هي ثابتة لله عز وجل وحده علىٰ أكمل وجه وأتمه .

وقد ورد في الحديث القدسي: (العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني في شيء منهما قصمته)(١).

فهو سبحانه إن وصف بعض عباده بالعظمة، كقوله في العرش: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾[المؤمنون:٨٦].

وكقوله في عرش بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ

---

(١) أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٨، ٣٧٦، ٤٤٢).
ورواه مسلم بنحوه (٢٦٢٠).(١) رواه مسلم (٩١).

عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل:٢٣].

وكقوله في شأن السحر الذي جاء به سحرة فرعون: ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١١٦].

فإنما يراد بها العظمة التي تناسب المخلوق حين ينسب إلى ما هو أحقر منه.

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله:

(واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء والعظمة. ومن عظمته أن السموات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ذلك بن عباس وغيره.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر:٤١].

فلله تعالى الكبرياء والعظمة الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما .

والنوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد من الخلق

أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له، والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه أن يتقى حق تقاته فيطاع ولا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ومن تعظيمه ما حرمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢]، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠].

ومن تعظيمه أن لا يعترض على شيء خلقه أو شرعه)[1].

**

(**العلي**): ومن أسمائه الحسنى سبحانه: (العلي)، وقد ورد هذا الاسم الكريم في القرآن العظيم مقترنًا باسمه تعالى: (الكبير)، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء:٣٤].

وكما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن

---

(١) الحق الواضح المبين ص ٢٢٤.

ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣].

ومقترنًا باسمه (العظيم) كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ [الشورى:١-٤].

ولعل المناسبة بين اسمه سبحانه (العلي) وبين كل من هذين الاسمين في غاية الظهور؛ فإن من كان عليًا فوق جميع خلقه فإن كل شيء يتضاءل دون كبريائه وعظمته بحيث يكون هو المخصوص بهما وحده.

وهذا الاسم الكريم دال علىٰ أن جميع معاني العلو ثابتة لله - تعالىٰ- من كل جهة فله علو الذات فإنه - سبحانه - مستو علىٰ عرشه فوق جميع خلقه، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥].

ولا معنىٰ لاستوائه علىٰ العرش إلا علوه وارتفاعه عليه.

وأما تأويل ذلك بـ «استولىٰ» كما تزعمه النفاة الجاحدون لوصف العلو، فهو تأويل باطل لغة وعقلا وفطرة.

وله كذلك علو القدر وهو علو صفاته وعظمتها فلا تماثلها صفات المخلوقين بل لا يقدر الخلق كلهم أن يحيطوا بمعنىٰ صفة واحدة من صفاته.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم جميعًا بيده، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأ الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه؛ وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته، وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من جميع الوجوه.

وخلاصة القول: أن الثابت لله عز وجل من وصف العلو هو العلو المطلق الكامل الذي يتناول هذه الوجوه كلها، فتخصيصه ببعضها كعلو القدر والرتبة أو علو القهر والغلبة هو تنقص من الصفة، وتقييد لما دلت عليه من الإطلاق بلا دليل.

وينبغي أن يعلم أن هناك فرقًا بين صفتي العلو والاستواء على العرش، فإن علوه تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها أمر دل عليه العقل والفطرة مع النصوص الكثيرة المتواترة.

وقد أثبت ذلك العلامة ابن القيم في قصيدته النونية التي وفقني الله لشرحها، من واحد وعشرين وجهًا. فمن أراد شفاء نفسه من هذا الموضوع فليرجع إليها[١].

---

(١) انظر: شرح قصيدة ابن القيم ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

وأما استواؤه تعالىٰ علىٰ العرش فهو ثابت بالنقل الصريح من الكتاب والسُّنة؛ فقد أخبر الله سبحانه أنه استوىٰ علىٰ عرشه في سبعة مواضع من كتابه، كما صرحت بذلك أحاديث كثيرة ليس هنا موضع ذكرها. ومن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلىٰ كتاب (العلو للعلي الغفار) للعلامة الذهبي.

كما ينبغي أن يعلم - أيضًا - أننا حين نثبت استواء حقيقيًا لله علىٰ عرشه لا نخوض في كيفية ذلك الاستواء، ولا نشبهه باستواء المخلوق علىٰ المخلوق، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . بل نقول كما قال الإمام مالك - رحمه الله - لمن سأله عن الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب»[1].

ونجعل قولة مالك هذه دستورًا لنا فى جميع ما أخبر الله به عن نفسه أو أخبر به عنه رسول الله ﷺ فنؤمن به علىٰ الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، وننزهه عن مشابهة المخلوقين.

هذا وإن علماء أنصار السُّنة المحمدية لم يألوا جهدًا في بيان منهج السلف القويم في هذا الباب حتىٰ تميزت بذلك دعوتهم، وأما ما يشنع به خصومهم عليهم ويرمونهم به من ألقاب السوء، كقولهم مشبهة مجسمة، فإنها شنشنة قديمة يضاهئون بها قول إخوانهم الذين سبقوهم

---

(١) انظر: ذم التأويل ص ١٣، ٢٦ .

في النفي والتعطيل حين كانوا يرمون كل من يثبت الصفات بالتجسيم والتمثيل . ونحن لا ننفي صفات الله عز وجل التي نطقت بإثباتها النصوص الصريحة من الكتاب والسُّنة لأجل شناعة يشنع بها علينا مارق كذاب لا يؤمن بالسُّنة والكتاب، بل نقول كما قال الشاعر:

إن كان تجسيمًا ثبوت صفاته فليشهد الثقلان أني مثبت

وأحب قبل أن أنتقل من الكلام على هذا الاسم الكريم أن أنقل إلى إخواني قراء (الهدي) كلام إمام من أئمة النفي والتعطيل في شرح هذا الاسم الجليل حتى يدركوا الفرق بين ما قلناه في معناه وبين ما يذهب إليه هؤلاء المعطلة النفاة، وليعلم من لم يكن يعلم أي الفريقين منا ومنهم أهدى سبيلاً وأقوم قيلا.

يقول أبو حامد الغزالي في كتابه (المقصد الأسنى) ما نصه: (العلي: هو الذي لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطة عنه؛ وذلك لأن العلي مشتق من العلو مأخوذ من العلو المقابل للسفل، وذلك إما في درجات محسوسة كالدرج والمراقي وجميع الأجسام الموضوع بعضها فوق بعض، وإما في الرتب المعقولة للموجودات المترتبة نوعًا من الترتيب العقلي فكل ما له الفوقية من الرتبة فله العلو في الدرجات العقلية.

إلى أن يقول (سامحه الله): فهكذا ينبغي أن نفهم فوقيته وعلوه، فإن هذا الأساس وضعت أولاً بالإضافة إلى إدراك البصر، وهو درجة العوام، ثم لما تنبه الخواص لإدراكات البصائر ووجدوا بينها وبين الأبصار

موازنات استعاروا منها الألفاظ المطلقة، وفهمها الخواص، وأنكرها العوام الذين لم يتجاوزوا إدراكهم من الحواس التي هي مرتبة البهائم، فلم يفهموا عظمةً إلا بالمساحة، ولا علوًا إلا بالمكان، ولا فوقية إلا به.

فإذا فهمت معنىٰ كونه فوق العرش لأن العرش أعظم الأجسام وهو فوق جميعها، والموجود المنزه المقدس عن التحديد والتقدر بحدود الأجسام ومقاديرها فوق الأجسام كلها في الرتبة، ولكن خص العرش بالذكر لأنه فوق جميع الأجسام، فما كان فوق جميعها، وهو كقول القائل: (الخليفة فوق السلطان) تنبيهًا به علىٰ أنه إذا كان فوقه كان فوق جميع الناس الذين هم دون السلطان)[١].

هذا هو كلام الغزالي فارس حلبة التعطيل الذي انتهت إليه رياسة مذاهب أهل التأويل.

انظر كيف نفىٰ وجود الله من حيث لا يدري حيث جعله وجودًا معقولاً مدركًا بالبصيرة لا بالبصر، وجعل علوه وفوقيته بالرتبة والمكانة لا بالجهة والمكان.

(الجليل) و**(الجميل)**: ومن أسمائه الحسنىٰ سبحانه «الجليل والجميل» ولم يرد ذكرها في القرآن بهذه الصيغة بل ورد (ذو الجلال) وصفًا للوجه مرة كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾[الرحمن:٢٦،٢٧].

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص ١٠٦ .

ووصفًا مرة كما في قوله تعالىٰ: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾[الرحمن:٧٨].

وأما اسمه الجميل فقد ورد به الحديث الصحيح وهو قوله عليه السلام: (إن الله جميل يحب الجمال)[١].

وكثيرًا ما يقرن هذين الاسمين الكريمين، لأنهما متضمنان لسائر نعوت الجلال والجمال.

وإنما يكون تمام التعبد لله عز وجل بهما جميعًا، فالتعبد (بالجليل) يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه (الجميل) يقتضي محبته والتأله له، وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو المودة بحيث يسبح في رياض معرفته وميادين جماله.

فالجليل هو الذى له أوصاف الجلال كلها من العظمة والكبرياء والغنىٰ والملك والتقديس والعلم والقدرة ونحوها، فهو يرجع إلىٰ كمال الصفات، كما أن اسمه (الكبير) يرجع إلىٰ كمال الذات . وهو سبحانه الجليل علىٰ الإطلاق لا يستحق هذا الوصف غيره لأنه هو وحده الجامع لكل أوصاف الجلال، وهو بالغ في كل صفة منها غاية الكمال.

قال العلامة (ابن قيم الجوزية) في قصيدته النونية[٢]:

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ل له محققةٌ بلا بطلانْ

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) شرح النونية (٢/ ٢١٤) .

وأما الجميل فهو اسم له - سبحانه - من الجمال، وهو الحسن الكثير. فهو الجميل بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.أما جمال الذات فلا يمكن لمخلوق أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى إن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللذائذ العظيمة والسرور والبهجة التي لا يقادر قدرها، إذا رأوا ربهم، وتمتعوا بجماله، نسوا ما هم فيه من ذلك النعيم، وتلاشى في أعينهم حتى لا يكادون يحسون به، وكانت قلوبهم في شوق دائم وحنين إلى رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحًا تطير له قلوبهم.

وأما جمال الأسماء فإن أسماءه سبحانه كلها حسنى، بل هي أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ ﴾[الأعراف:١٨٠]، وقال: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾[مريم:٦٥]، أي مساميًا يساميه ونظيرًا يستحق مثل اسمه، فأسماؤه كلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال، ليس فيها ما ينقسم إلى كمال وغيره.

وأمام جمال الصفات فإن أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والكرم والجود.

وأما جمال الأفعال فإن أفعاله - سبحانه - في غاية الجمال إذ هي دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويثنى عليه بها ويشكر. وبين أفعال العدل التي يحمد - كذلك - لموافقتها للحكمة. فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا جور ولا ظلم بل كلها خير وهدي ورحمة ورشد

وعدل، قال تعالىٰ: ﴿رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود:٥٦].

وإن جميع أنواع الجمال المبثوثة في صور الموجودات وأصناف المخلوقات، هي من آثار جماله - سبحانه - فهو الذي أعطاها هذا الجمال، وكساها ثياب الحسن، فهو أولىٰ منها به؛ لأن معطي الشيء لا يصح أن يكون فاقدًا له، فمعطي الجمال أحق بالجمال.

قال الشيخ ابن ناصر السعدي - رحمه الله[1] -: فكل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا فإن معطيه وهو الله أحق به من المعطىٰ بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لانسبة لذواتهم إلىٰ ذاته، وصفاتهم إلىٰ صفاته.

فالذي أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال، أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جمال الله تعالىٰ وقد قال الرسول ﷺ وهو أعلم الخلق بالله: (لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك)[2]، وقال: (حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه)[3].

فسبحان الله وتقدس عما يقول الظالمون النافون لكماله علوًا كبيرا.

**

(١) الحق الواضح المبين ص ٢٢٧ .

(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) رواه مسلم (١٧٩).

(**الحسيب**): ومن أسمائه الحسني سبحانه (الحسيب) وله معنيان:

أحدهما: أن يكون من الحسب بمعنىٰ الكفاية، وهي إما كفاية عامة تشمل جميع الخلق، فهو - سبحانه - كافي الخلق كلهم، لا يحتاجون معه إلىٰ شيء آخر يدبر مصالحهم، ويوصل إليهم أقواتهم، وينيلهم مقاصدهم وحاجاتهم، فهو الذي ابتدأ خلقهم دون معونة أحد أو مشورته، وهو الذي يمدهم بأسباب البقاء إلىٰ الأجل الذي قدره لهم، وهو الذي يسوق كل موجود إلىٰ غايته التي بها تمامه وكماله.

وليست حاجة العبد إلىٰ الطعام والشراب واللباس والمأوىٰ وغير ذلك من ضرورات عيشه حاجة إلىٰ غير الله عز وجل، فإنه هو الذي تفضل عليه فأعطاه من ذلك كفايته وأزال ضرورته، بل أعطاه من ألوان الترف وصنوف اللذات ما هو فوق حاجته، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

[إبراهيم:٣٤].

فكل ما يملكه العباد من منافع وأرزاق إنما هو فيض جوده ورحمته، ولو شاء لقطعه عنهم، فكيف إذًا تكون حاجتهم إلىٰ غيره ؟ بل هو وحده سبحانه حسيب كل أحد، وليس في الوجود شيء هو وحده يكون حسيب شيء آخر إلا الله عز وجل، فإن الأشياء مهما يتعلق بعضها ببعض وتظهر حاجة كل منها إلي غيره فمرجعها كلها إليه إذ هو موليها وواهبها ورابط نتائجها بمباديها، لا رب لها غيره، ولا مالك لها سواه.

وأما الكفاية الخاصة فهي التي تكون لأوليائه وأهل طاعته، الذين قاموا له بحق العبودية، محبة وذلاً وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً واستكانةً وتوكلاً واستعانةً وتوبةً وإنابةً وسؤالاً ودعاءً إلىٰ غير ذلك من أنواع العبادة التي تعبدهم الله بها في أقوال اللسان وأعمال الجوارح وإنفاق الأموال . فهؤلاء يكون لهم من كفاية الله وكلاءته وحمايته بقدر ما حققوا من معاني عبوديته، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] ، فأتىٰ بوصف العبد للإشعار بأن تلك الكفاية منوطة بأهل عبادته فإنها كفاية خاصة بهم فوق ما لسائر الخلق من سابغ كفايته.

وأكثر ما جاء وصف الحسب في القرآن الكريم إنما هو بمعنىٰ تلك الكفاية الخاصة فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٣،١٧٤] .

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤] .

ومن – هنا – معطوفة علىٰ الضمير المضاف إلىٰ حسب، وليست معطوفة علىٰ لفظ الجلالة؛ فإن الحسب مختص بالله عز وجل وحده، لا تجوز الندية فيه، فيكون المعنىٰ: كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين: الله.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة:٥٩].

فجعل الإتياء لله ورسوله، لأنه أمر تجوز فيه، ولكنه جعل الحسب لله عز وجل وحده، وجعل الرغبة - كذلك - إليه وحده.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

وأما المعنى الثاني لاسمه تعالى (الحسيب) فهو الذى يحفظ أعمال عباده من خير وشر، ثم يحاسبهم عليها كذلك، فيجزيهم بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوء، فهو حسيب بمعنى محاسب كقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

وكقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦].

**

(**الرقيب والشهيد**): ومن أسمائه الحسنى كذلك (الرقيب والشهيد) ومعناهما متقاربان، بل لا يبعد أن يقال أنهما مترادفان، فإن مراقبة الشيء مراقبة تامة وملاحظته لازمة دائمة لا يمكن إلا مع المعية

والحضور. وضد المراقبة الغفلة، وضد الشهود الغيبة. وهما أيضًا متلازمان.

وكلا الاسمين الكريمين مذكور في القرآن الكريم، أما الرقيب فيذكر غالبًا في معرض التحذير من ارتكاب شيء ممنوع منه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ١﴾ [النساء:١].

فإنه بعد أن أمرهم بالتقوى التي هي اجتناب المحرمات، ذيل الآية باسمه الرقيب، تحذيرًا لهم من الوقوع في شيء منها.

وكما في قوله سبحانه خطابًا لنبيه : ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب:٥٢].

وفي معنى الرقيب الآيات التي تنفي عنه سبحانه الغفلة، فإن الغفلة كما قلنا تنافي المراقبة، فنفيها يستلزم لإثبات ما يضادها من كمال المراقبة كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾ [الأنعام:١٣٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ ٤٢﴾ [إبراهيم:٤٢].

وأما اسمه تعالى (الشهيد) فالأظهر أنه من الشهود بمعنى الحضور والاطلاع، وهو راجع إلى معيته العامة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو مع كل شيء بعلمه وقدرته وسمعه ورؤيته، وهو محيط بهم إحاطة من لا يغيب عنه شيء من أقوالهم وأفعالهم وسرائر قلوبهم قال تعالى: ﴿وَمَا

تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١].

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة:٦، ٧] .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله عند شرحه لهذين الاسمين الكريمين[١]: (الرقيب)، (الشهيد) مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى: الأفعال الظاهرة بالأركان قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [الأنعام:١٩]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة:٦].

ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله

---

(١) الحق الواضح المبين ص ٢٤٢ .

بعلمه، واستحضر هذا العلم في كل أحواله أوجب ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان؛ فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

ومما جاء من السُّنة في هذا المعنى قوله ﷺ: (صريح الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت)[1].

وقوله عليه السلام: (استحِ من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك)[2].

**

(النور): ومن أسمائه الحسنى سبحانه (النور) وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في موضوعين: أحدهما قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

---

(١) الطبراني في مسند الشاميين (٥٣٥)، وأبو نعيم (٦/ ١٢٤). وقال: غريب. كلاهما بلفظ: (أفضل الإيمان).

(٢) البيهقي في الشعب (٣٧٣٨)، بنحوه. وقال: إسناد ضعيف، وله شاهد ضعيف.

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر:٦٩].

وورد ذكره كذلك في كثير من الأحاديث الصحيحة، فقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: (اللّهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن)(١).

وقد روى الدرامي والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه»(٢).

وروى محمد بن إسحاق في سيرته أن رسول الله ﷺ قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل علي سخطك لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)(٣).

وفي الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال «قام فينا رسول الله

---

(١) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) الطبراني في الكبير (٨٨٨٦)، وأبو نعيم ١/ ١٣٧ .
وانظر مجمع الزوائد (١/ ٨٥).

(٣) رواه الطبراني. وهو في جزء ترجمته في الكبير (٢٥/ ٣٤٦). وانظر مجمع الزوائد (٦/ ٣٥).

ﷺ بأربع كلمات قال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور -أو قال النار- لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

وروى أحمد في مسنده من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»[2].

ولكن ينبغي أن يفرق في هذا المقام بين النور الذي هو صفة ذاته سبحانه وبين النور المخلوق، فإن النور الذي هو صفة الذات قائم بها لا يتعدها إلى غيرها.

وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها.

وهو ينقسم إلى حسي مدرك بالبصر كنور الشمس والقمر والنجوم والنار والكهرباء وغيرها. وإلى معنوي مدرك بالبصيرة كنور الوحي والقرآن ونور الحق والإيمان قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ

---

(١) رواه مسلم (١٧٩).

(٢) أحمد (٢/ ١٧٦، ١٩٧)، والترمذي (٢٦٤٢).

قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾

[المائدة:١٥،١٦].

وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴾[الأنعام:١٢٢].

وكذلك رسول الله هو نور بهذا المعنى، لأنه يعرف الناس بربهم ويدلهم على طريقه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾[الأحزاب:٤٥،٤٦].

ويقول العلامة ابن القيم في قصيدته النونية:

والنور ذو نوعين مخلوق ووصـ ـف ما هما والله متحدان

وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ ـسوس ومعقول هما شيئان

ولكن المعطلة الجهمية ينكرون النور الذي هو وصف الذات كما هو شأنهم في سائر الصفات التي يزعمون أنها توهم التشبيه والتجسيم فيقولون إن النور عرض لا يقوم إلا بالأجسام، ولهذا تضطرب عباراتهم في تفسير ذلك النور الذي أضافه الله إلى نفسه، فمنهم من يفسره بكمال الوجود وتمام الظهور، ومنهم من يؤوله باسم الفاعل، فالله نور السموات والأرض بمعنى منورها وهادي أهلهما إلى غير ذلك من العبادات التي تدل على حيرتهم إذ لم يهتدوا إلى الفرق بين النور الذي هو صفة ذاته

سبحانه كما دلت الآيات والأحاديث، وبين الأنوار التي هي بجعله وخلقه في الحسيات والمعنويات.

يقول أبو حامد الغزالى في كتابه «المقصد الأسنى»:

(النور) هو الظاهر الذي به كل ظهور، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورًا، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود، ولا ظلام أظلم من العدم فالبريء عن ظلمة العدم بل عن إمكان العدم والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورًا. والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته، فهو نور السموات والأرض. وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة فلا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها. وما ذكرناه في معنى الظاهر يفهمك معنى النور، ويغنيك عن التعسفات المذكورة في معناه[1].

وإنما ذكرت لك هذا النموذج من كلام هؤلاء المعطلة النفاة لتدرك أي فرق بينه وبين ما ذكرناه من معاني النور، والله يهدي من يشاء.

نسأل الله أن يجعل لنا نورًا في قلوبنا وأسماعنا وأبصارنا ومن حولنا، وأن يزيدنا من نوره، إنه ولى المؤمنين.

---

(١) المقصد الأسنى ص ١٤٦ .

(الـولي و الـوالي): ومن أسمـائه الحسنى سبحـانه (الـولي) و (الوالي) ومعناهما متقاربان، بل لعلهما مترادفان، وكلاهما مذكور في القرآن.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام:١٤].

وقال: ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦].

وقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِۦِّى فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١].

وقال: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١].

ولعل من المفيد هنا أن نبين أصل اشتقاق هذين الاسمين الكريمين بما يتضح معه معناها، فإن الولاية من الألفاظ التى ضل أكثر الناس في فهم مدلولها حتى نحلوا أصحابها من السلطان الغيبي ومن القدرة على التصرف والتأثير ما لا ينبغي إلا لله عز وجل .

يقول الراغب فى مفرادته عند كلامه على مادة (ولي) ما ملخصه:

« الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث الدين ومن حيث النسبة ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد . والولاية تولي الأمر، والولي والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي وفي معنى المفعول أي الموالى، يقال للمؤمن هو ولي الله عز وجل، ولم يرد مولاه »[١].

ويقول ابن الأثير فى النهاية:

« في أسماء الله تعالى (الولي) هو الناصر، وقيل المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها . ومن أسمائه عز وجل (الوالي) وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها؛ وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيه لم يطلق عليه اسم الوالي »[٢].

ويقول أبو حامد الغزالي في كتابه المقصد الأسنى[٣]:

---

(١) المفردات ص ٨٨٥ .

(٢) النهاية (٥/ ٢٢٦).

(٣) المقصد الأسنى ص ١٢٩ .

(الولي) هو المحب الناصر. ومعنى وده ومحبته قد سبق، ومعنى نصرته فإنه يقمع أعداء الدين وينصر أولياءه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[البقرة:٢٥٧].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:١١].

والولي من العباد من يحب الله ويحب أولياءه، وينصره ويعادي أعداءه، ومن أعدائه النفس والشيطان، فمن خذلهما ونصر أمر الله، ووالى أولياء الله، وعادى أعداءه فهو الولي من العباد.

والذي يمكن أن يستخلص من هذه النصوص أن الولاية من المعاني المشتركة التي يوصف بها الله عز وجل كما يوصف بها غيره. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[المائدة:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[الكهف:١٠٢].

فإذا وُصف الله - عز وجل - بها فإما أن يراد بها الولاية العامة فهو - سبحانه - ولي الخلق كلهم بمعنى المتولي لأمورهم والكفيل بمصالحهم وحاجاتهم، لا ولي لهم غيره ولا مدبر سواه.

وإما أن يراد الولاية الخاصة وهي ولايته سبحانه للمؤمنين والمتقين، فتكون بمعنى النصرة والمحبة والرعاية والتأييد. فهو سبحانه

مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، وهو المدافع عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، فهو وليهم الذي لا ولي لهم سواه، وهو مولاهم الحق، وينصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

وأما إذا وصف بها العبد فقيل: ولي الله فمعناه المتقرب إلى الله بطاعته، والموافقة له سبحانه في محابه ومساخطه، فلا يحب إلا ما أحبه الله من الأشخاص والأعمال والأخلاق، ولا يبغض إلا ما أبغضه الله كذلك، يوالي إلا أولياء الله ولا يعادي إلا أعداءه . كما في الحديث الصحيح : (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)[1] .

ويجوز أن يكون الولي من فعيل بمعنى مفعول، والمراد به من والاه الله فأحبه وأدناه لاجتهاده في طاعته وتقواه، كما في الحديث الذي رواه البخاري: (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)[2].

وقد حدد القرآن الكريم معنى الولي من العباد تحديدًا يزيل كل

(١) الترمذي (٢٥٢١) عن معاذ بن أنس. وأبو داود (٤٦٨١) عن أبي أمامة.

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

لبس ولا يدع لأحد مقالاً حين قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

فقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، تعريف جامع مانع للأولياء، وهو يتضمن لكمالهم في الناحية الاعتقادية وفي الناحية العلمية العبادية.

فهو كقوله تعالىٰ في شأن بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [السجدة:٢٤].

فأشار بالصبر إلىٰ قوة الإرادة والعمل، وباليقين إلىٰ كمال العلم والاعتقاد.

علىٰ أن هذا الوصف الإجمالي للأولياء قد ورد علىٰ سبيل التفصيل في مواضع كثيرة من التنزيل، من أجمعها قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

[الفرقان:٦٤-٧٤].

فانظر كيف انتكست فطر الناس وفسدت عقولهم حين عموا عما بينه الله ورسوله وجروا وراء ما زينته لهم الشياطين، فنحلوا الولاية من لا علم عنده ولا عمل، من هؤلاء الجهلة المفسدين الذين تجردوا من كل مزية، وتحللوا من ربقة الدين والخلق، ولم يتقيدوا بقيود الشريعة الغراء، ولم يتأدبوا بآداب السُّنة المطهرة، بل كل مؤهلاتهم في نظر هؤلاء الغوغاء أنهم منتسبون إلى طريقة من هذه الطرق الصوفية التي ضحك بها الشيطان على هذه الأمة، ليبددها شيعًا، ويمزق وحدتها، ويصرفها عن صراط ربها الذي رسمه لها في كتاب وسنة رسوله.

فمتى يفيق المسلمون من رقدتهم ؟ ومتى تنكشف هذه الحجب المسدلة على قلوبهم، فيبصروا نور الحق، ويعرفوا أن ولاية الله لا تنال إلا بطاعته، والوقوف عند حدوده ؟

**

(**الودود والشكور**): ومن أسمائه الحسنى سبحانه «الودود والشكور» وكلاهما وارد في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

[هود:٩٠].

وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٢-١٦].

وقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [التغابن:١٧، ١٨].

أما الودود فقد قال الراغب في المفردات:

« الود محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين على أن التمني يتضمن معنى الود لأن التمني هو تشهي حصول ما توده »[1].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۝٢١﴾ [الروم:٢١]، ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم:٩٦].

إشارة إلى ما وقع بينهم من الألفة المذكورة، في قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۝٦٣﴾ [الأنفال:٦٣].

ومن المودة التي تقتضي المحبة المجردة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۝٢٣﴾ [الشورى:٢٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج:١٤]. ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود:٩٠].

---

(١) المفردات ص ٨٦٠ .

فـالود يتضمـن ما دخل في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۚ﴾ [المائدة:٥٤] .

وفي الـنهاية (لابن الأثير): «في أسماء الله تعـالىٰ الودود، هو مفعول من الـود بمعنىٰ المـحبة، يقال: وددت الـرجل أوده ودًا إذا أحببته . فالله تعـالىٰ مودود، أي محبوب فـي قلوب أوليائه، أو هو فعـول بمعنىٰ فاعل، أي أنه يحب عباده الصالحين، بمعنىٰ أنه يرضىٰ عنهم»[١] .

وما أحسن قول العلامة (ابن القيم) في نونيته[٢]:

وهـو الودود يحـبهم ويحـبه ... أحـبابه والفضـل للمـنان
وهو الذى جعل المحـبة في قلو ... بهـم وجـازاهـم بحـب ثان
هذا هو الإحسـان حقًا لامعا ... وضـة ولا لتوقع الشـكران
لكن يحـب شـكورهم وشكورهم ... لا لاحتياج منه للشـكران

فاسمـه تعالىٰ (الودود) متضمن للمعنـيين جميعًا، فهو الواد لأوليائه وأهل طاعـته، بمعنىٰ المحب لهم، وذلك لقيامهم بما يستوجبون به تلك المحبـة من الإخلاص له، والإكثار من ذكره، والإنابة، وقوة التوكل عليه، والتقـرب إليه بالفـرائض والنـوافل، وحسن الـمتابعـة للنبي ﷺ ظـاهرًا وباطنًا. كمـا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ

---

(١) النهاية (٥/ ١٦٤).

(٢) شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٣٠).

﴿لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١] .

وهو سبحانه المودود لهم فهم يحبونه أشد الحب، بل لا شيء أحب إليهم منه، فمحبته عندهم سابقة لكل محبة، وغالبة على كل محبة، بل كل محبة غيرها فهي تابعة لها.

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله -: «ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، ثم لما أحبه العبد جازاه الله بحب آخر، فهذا الإحسان المحض على الحقيقة؛ إذ منه السبب ومنه المسبب، ليس المقصود منها المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين ولشكرهم؛ فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد . فتبارك الذي أودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشتهون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله، والفوز برضاء، والأنس بقربه، فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه؛ فمحبة قبلها صار بها محبًا لربه، ومحبة بعدها شكرا من الله له على محبة صار فيها من أصفيائه المخلصين»[1] .

(١) الحق الواضح المبين ص ٢٤٨ .

ولكن ينبغي أن لا يفهم من هذا أن اسمه تعالىٰ (الودود) مرادف لكونه للمؤمنين أو محبوبًا لهم، بل هو متضمن لمعنىٰ زائد علىٰ مجرد المحبة وهو تودده إليهم بإفاضة النعم والخيرات التي كلما ذكروها امتلأت قلوبهم من محبته .

وكذلك توددهم إليه بالطاعات التي هي سبب قربه ومحبته لهم، فالمودة تتناول المحبة كما تتناول جميع الأسباب المفضية إلىٰ نموها ودوامها .

هذا ولا بد من التنبيه هنا إلىٰ ما فعله المعطلة من أرباب الكلام الجاهلين بهذا الاسم الجميل حيث حرفوا معناه وألحدوا فيه؛ لأنهم لا يؤمنون بمحبة متبادلة بين الله وبين أصفيائه . بل يفسرون تلك المحبة بلوازمها من الإحسان وإرادة الخير ونحو ذلك .

وإليك ما يقوله الغزالي أحد أئمة التعطيل في تفسير هذا الاسم الكريم:

(الودود هو الذي يحب الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم ويثني عليهم، وهو قريب من الرحيم، لكن الرحمة إضافة إلىٰ مرحوم، والمرحوم هو قريب من الرحيم لكن الرحمة إضافة تستدعي مرحومًا ضعيفًا، وأفعال الودود لا تستدعي ذلك بل إنعام علىٰ سبيل الابتداء من نتائج الود . فكما أن معنىٰ رحمته تعالىٰ إرادته الخير للمرحوم وكفايته له وهو منزه عن رقة الرحمة فكذلك وده إرادته الكرامة والنعمة وإحسانه وإنعامه وهو منزه عن ميل المودة لكن المودة والرحمة لا تراد في حظ

المرحوم إلا لثمرتها وفائدتها لا للرقة والميل، فالفائدة هي لباب الرحمة والمودة، وذلك هو المقصود في حق الله تعالى[1]».

وأما اسمه تعالى (الشاكر - الشكور) فقد قال الغزالي في تفسيره:

«هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيمًا في الآخرة غير محدود، ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال إنه شكر تلك الحسنة، ومن أثنى على المحسن أيضًا يقال إنه شكره.

فإذا نظر إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله تعالى، لأن زيادته في المجازاة غير محصورة ولا محدودة، فإن نعيم الجنة لا آخر له، والله تعالى يقول: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝﴾[الحاقة:٢٤].

وإن نظرت إلى معنى الثناء فثناء كل مثن على غيره، والرب تعالى إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على نفسه؛ لأن أعمالهم من خلقه»[2].

والشكر من الصفات المشتركة بين الله عز وجل وبين العبد، فإذا وصف به العبد كان معناه اعتراف العبد بنعمة الله، عليه وثنائه عليه بها، واستعماله إياها في طاعته ومرضاته.

(١) المقصد الأسنى ص ١٢٢ .

(٢) السابق ص ١٠٥ .

واما إذا وصف به الـرب فمعناه قبوله سبحانه لعمل العبد ورضاه عنه وإثابته عليه، فهو لا يضيع سعى العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة.

وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه ﷺ بمضاعفة الحسنات الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

وكقوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن:١٧].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما: (إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى اضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت سيئة واحدة)(١).

فأي شكر لأعمال العباد أعظم من هذا.

فبغيته سبحـانه ما يتحمل المتحملـون لأجله ومن فعل شيئًا لأجله، أعطاه فوق حقه، ومن ترك شيئًا لأجله عوضه خيرًا منه.

وهو الذي وفق لمرضـاته ثم شكرهم على ذلك وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وكل هذا ليس

(١) البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

حقًا واجبًا عليه وإنما هو الذي أوجبه على نفسه، جودًا منه وكرمًا.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله[1]:

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عمل لديه ضائع إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله والفضل للمنان

**

(**المقسط الجامع**): ومن أسمائه الحسنى سبحانه (المقسط والجامع)،أما المقسط فهو اسم فاعل من أقسط بمعنى عدل، وأصله من قسط بمعنى جار وظلم.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝﴾ [الجن:١٥].

فالهمزة في أقسط لسلب معنى الجور والظلم.

ولم يرد هذا الاسم الكريم بلفظه ولكن ورد معناه في آيات كثيرة كلها تنفي عن الله سبحانه كل شائبة ظلم، وتصفه بكمال النصفة والعدل في حكمه وقضائه وفيما قدره من أجزية على أعمال العباد بمثوبة وعقوبة .

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟

(١) شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٣٠).

﴿ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾[النساء:٤٠].

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۝﴾[الأنعام:١١٥].

وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝﴾[الأنعام:١٦٠].

وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝﴾[الأنبياء:٤٧].

وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾[الزلزلة:٧، ٨].

وورد - كذلك - معناه في كثير من الأحاديث الصحيحة، كقوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه عز وجل: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا)[1].

وقوله في دعائه المشهور: (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك...)[2].

وهو- سبحانه - لكمال عدله ينتصف لكل مظلوم ممن ظلمه، ويأخذ له بحقه حتى إنه يقتص للبهائم بعضها من بعض كما قال عليه

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢).

السلام: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[١].

وفي الحديث الآخر يقول النبي ﷺ لأصحابه: (أتدرون من المفلس؟ فيقولون: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فيقول: لكن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بحسنات كثيرة ولكنه قد ضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى إذا لم يتبقى له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه حتى يطرح على وجهه في النار)[٢].

ولكن العبد إذا تاب إلى الله عز وجل، وأحسن الإقبال عليه بعمل الصالحات، والإكثار من نوافل الطاعات، وبقيت مظالم لم يستطع ردها إلى أصحابها، فإن الله سبحانه فضلاً منه وكرمًا يرضي عنه خصومه يوم القيامة، ويعطيهم من أنواع النعيم والكرامة ما يرغبهم في العفو عنه، كما ورد بذلك الحديث[٣].

وأما اسمه تعالى (الجامع) فهو اسم فاعل من الجمع، بمعنى التأليف بين الأشياء، وضم بعضها إلى بعض.

ولهذا الجمع مظاهر متعددة؛ فهو سبحانه بقدرته يجمع بين المتباينات كجمعه في هذه الأرض بين الهواء والبحار والجبال والأنهار

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٣) الحاكم ٤/ ٢٦٠، والخطيب (٩/ ٣٤١)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن (١١٨).

وأنواع الحيوانات والنباتات والمعادن المختلفة على ما بينها من التباين والاختلاف في الأشكال والألوان والطعم والأوصاف.

وكجمعه في بدن الحيوان بين العظم والعصب والعروق والعضل والرباطات والأوردة والشرايين والمخ والبشرة والدم وسائر الأخلاط المختلفة المتباينة.

وأما جمعه بين المتضادات فجمعه بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في أمزاجه الحيوانات مع كونها أمورًا متعادية متنافرة.

ولكن أعظم مظاهر جمعه سبحانه هو ما أخبر عنه القرآن الكريم من جمعه الناس في عرصات القيامة لفصل القضاء بينهم .

قال تعالى على لسان الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝﴾[آل عمران:٩].

وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾[الواقعة:٤٩،٥٠].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۝﴾[التغابن:٩].

وقوله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾[المرسلات:٣٨].

وفي حديث الشفاعة الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها ثم قال: (أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين

والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر)[1] إلخ الحديث.

وكذلك جمعه تعالىٰ الرسل لسؤالهم عما أجابتهم به أممهم كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة:١٠٩].

وكذلك جمعه لرفات الموتىٰ وتأليفه سبحانه بين ما تحلل من أبدانهم في النشأة الأخرىٰ ثم يعيد إليهم أزواجهم ويبعثهم من قبورهم أحياء.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٧-٧٩].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة:٣،٤].

ثم آخر ذلك أن يجمع الله أهل طاعته وولايته في دار رحمته ومستقر كرامته، وأن يجمع أعداءه وأهل معصيته في دار غضبه ونقمته.

نسأل الله أن يجعلنا من الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

**

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(**الباعث والوارث**):ومن أسمائه الحسنى سبحانه (الباعث والوارث).

قال الشاعر:

بالباعث الوارث الأموات قد ضمنت

إياهم الأرض في دهر الدهارير

الباعث والوارث: أما الباعث فهو فاعل البعث، وأصل البعث الإشارة والتحريك، قد ورد فعل البعث مسندًا إلى الله عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بمعان مختلفة.

منها: إحياؤه الموتى، وهذا البعث منه ما وقع بالفعل في الدنيا كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾[البقرة:٥٥،٥٦].

وكذلك في شأن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۝﴾[البقرة:٢٥٩].

وكقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝﴾[الكهف:١١،١٢].

ومنه ما سيقع يوم القيامة.

وأكثر ما ورد البعث في القرآن بهذا المعنى الذي هو إخراج الناس من قبورهم أحياء، وكان المشركون ينكرونه ويستهزئون برسول الله ﷺ

حين يخبرهم بوقوعه ويستعجلونه، ولهذا عنى القرآن بتوكيده وأقسم عليه، وأكثر من إيراد الأدلة المثبتة له، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس:٧٨-٨٣].

والإيمان بهذا البعث أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل عليه السلام حيث قال له الرسول ﷺ حين سأله عن الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر)[1].

وقد اختلف الناس في كيفية هذا البعث فمنهم من زعم أن هذه الأجساد التي كانت في الدنيا تعدم بالكلية، ثم يوجدهم الله بعد العدم إيجادًا مثل الإيجاد الأول.

ومنهم من ذهب إلى أن الله ينشئ أجسادًا جديدة لا صلة لها بالأجساد الأولى، ويعيد الأرواح إليها. وكلا الرأيين خطأ محض، وضلال بين، بل الذي دل عليه صريح الكتاب والسنة أن هذه الأجساد

---

(١) البخاري (٤٤٩٩)، ومسلم (١٠) واللفظ له.

التي في الدنيا هي التي تبعث بأن يجمع الله أجزاءها المتفرقة، ويؤلف بينها، ويخلقها خلقًا جديدًا، ويعيد الأرواح إليها، وهو الذي يقتضيه عدل الله ورحمته؛ فإن هذه الأجساد هي التي باشرت الطاعة والمعصية في الدنيا، فلابد أن تباشر جزاء ذلك أيضًا، إما ثوابًا ولذة على الطاعة، وإما عقوبة وألمًا على المعصية.

على أن البعث لو كان متعلقًا بأجساد جديدة بالكلية لما استبعده المشركون، فإنهم يرون كل يوم ما لا يحصى من الأشخاص التي يخلقها الله بالولادة، بل كان مناط عجبهم هو أن هذه الأجساد التي بليت وتفتت وضلت في الأرض كيف تعود إليها الحياة مرة أخرى.

ولقد حكى القرآن شبهتهم هذه أكثر من مرة كقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ٤٩﴾[الإسراء:٤٩].

وكقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠﴾[السجدة:١٠].

ومن المعاني التي وردت في القرآن الكريم كذلك إيقاظه سبحانه النائمين برد أرواحهم التي خرجت عند النوم إليهم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾[الأنعام:٦٠].

وكقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الزمر:٤٢].

ومنها: بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام قومهم مبشرين ومنذرين وبه معرفين وإليه داعين كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل:٣٦].

وأما اسمه تعالىٰ (الوارث): فمعناه الذي يصير وينتهي إليه كل شيء بحيث لا يبقىٰ لأحد معه شبهة ملك ولا شائبة تصرف في شيء من الأشياء فإن الله خلق لبني آدم جميع ما في الأرض، وسخره لهم، وملكهم إياه، وأذن لهم في الانتفاع به مدة بقاء هذه الدنيا، فإذا مات الناس وقامت القيامة آلت هذه الأشياء كلها إلىٰ مالكها الحقيقي جل شأنه.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الحجر:٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[مريم:٤٠].

يقول الغزالي: الوارث هو الذى يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك، وذلك هو الله سبحانه، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه. وإليه يرجع كل شيء ومصيره، وهو القائل إذ ذاك ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ [غافر:١٦] وهو المجيب: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر:١٦].

**

(**الشهيد**): ومن أسماء الله سبحانه (الشهيد): وهو اسم فاعل بمعنى شاهد ولكنه أبلغ منه، وهو إما عن الشهادة بمعنى الإخبار عن الشيء بما علمه منه إخبارًا يتضمن معنى الإلزام والحكم، أو من الشهادة بمعنى الحضور مع الشيء بأن يحيط به علمًا ورؤية لا يفوته منه شيء .

والمعنيان ثابتان لله عز وجل وكلاهما وارد في القرآن الكريم.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران:١٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء:١٦٦].

وقوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩].

وقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون:١].

ومن الثاني: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾ [آل عمران:٩٨]، أي مطلع عليه وحاضر عند عمله.

وقوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٦، ٧].

فإن نفي غيبته سبحانه مستلزم لشهوده وحضوره.

وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا

كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾[يونس:٦١].

وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[سبأ:٤٧].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾[المجادلة:٦].

وأكثر ما يأتي اسمه تعالىٰ (الشهيد) بهذا المعنىٰ.

وهو يرجع إلىٰ علمه تعالىٰ وخبرته وإحاطته بأحوال العبد كلها حتىٰ كأنه حاضر معه . ولهذا كان لهذا الاسم تأثير عظيم جدًا في استقامة أحوال المؤمن، فإنه إذا علم أن الله يراه، وأنه معه حيث كان، وأنه رقيب ومطلع عليه، لا شك يتأدب مع الله عز وجل غاية الأدب، ويستحق منه تعالىٰ أن لا يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، فلا يقصر في طاعة، ولا يقدم علىٰ معصية، ويصل بذلك إلىٰ مقام الإحسان، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله عز وجل يراه.

وفي الحديث الصحيح: (صريح الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت)[1] .

---

(١) الطبراني في مسند الشاميين (٥٣٥)، وأبو نعيم (٦/ ١٢٤). وقال: غريب. كلاهما بلفظ: (أفضل الإيمان).

وفي حديث آخر: (استحِ من الله عز وجل استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك)[١].

**

(الحق): ومن أسمائه الحسنى (الحق)، الحق: اسم فاعل من حق الشيء يحق حقًا إذا ثبت ووجب، ويقابله الباطل الذي لا حقيقة له ولا ثبات.

وقد ورد هذا الاسم كثيرًا في الكتاب الكريم والسُّنة المطهرة.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [الحج:٦].

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝﴾ [النور:٢٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝﴾ [لقمان:٣٠].

وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝﴾ [يونس:٣٢].

---

(١) البيهقي في الشعب (٣٧٣٨)، بنحوه. وقال: إسناد ضعيف، وله شاهد ضعيف.

وأما من السُّنة فقد ورد في الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: (اللَّهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض وما فيهن، أنت الحق، ووعدك حق ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، ومحمد حق، والنبيون حق الخ)[1].

والحق من الأسماء المشتركة بين الله عز وجل وبين غيره فإنه يطلق على كل ما له حقيقة وثبوت من الأشخاص والعقائد والأخبار وغيرها، كم ، يقال للشيء الذي يجب عليك نحو غيرك أنه حق.

فحق الله على عباده أن يعبدوه وأن لا يشركوا به شيئًا، وحق الوالدين على ولدهما أن يحسن إليهما، وأن يبرهما الخ.

ولكن الحق المطلق الذي لا باطل معه بوجه من الوجوه ليس إلا الله عز وجل وصفاته، فقوله الحق، وله دعوة الحق، وله الملك الحق يوم القيامة.

يقول الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى» عند شرحه لهذا الاسم:

(وعند هذا تعرف أن الحق المطلق هو الوجود الحقيقي بذاته الذي يأخذ منه كل حق حقيقته. وقد يقال أيضًا للمعقول الذي صادف به العقل الموجود حتى طابقه أنه حق، فهو من حيث ذاته يسمى موجودًا، ومن

---

(١) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

حيث إضافته إلى العقل الذي أدركه على ما هو عليه يسمى حقًا. فإذا أحق الموجودات بأن يكون حقًا هو الله تعالى، وأحق المعارف بأن يكون حقًا هو معرفة الله – تعالى – فإنه حق في نفسه أي مطابق للمعلوم أزلاً وأبدًا ومطابقة لذاته لا لغيره لا كالعلم بوجود غيره فإنه لا يكون إلا ما دام ذلك الغير موجودًا، فإذا عدم عاد ذلك الاعتقاد باطلاً. وذلك الاعتقاد أيضًا لا يكون حقًا لذات المعتقد لأنه ليس موجودًا لذاته، بل هو موجود لغيره. وقد يطلق ذلك على الأقوال فيقال: قول حق، وقول باطل. وعلى ذلك فأحق الأقوال قول: لا إله إلا الله، لأنه صادق أزلاً وأبدًا لذاته لا لغيره. فإذا يطلق الحق على الوجود في الأعيان وعلى الوجود في الأذهان وهو المعرفة وعلى الوجود الذي في اللسان وهو المنطق.

فأحق الأشياء أن يكون حقًا هو الذي يكون وجوده ثابتًا أزلاً وأبدًا، ومعرفته حقًا أزلاً وأبدًا، والشهادة له حقًا أزلاً وأبدًا، وكل ذلك لذات الموجود الحقيقي لا لغيره»[(١)] .

**

(البديع والهادي): ومن أسمائه الحسنى سبحانه (البديع والهادي): وكلاهما مذكور في القرآن الكريم، ودال على صفة من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته.

---

(١) المقصد الأسنى ص ١٢٦ .

أما البديع فهو فعيل بمعنى مفعل، ومعناه الخالق للأشياء والمخترع لها عن غير مثال سابق.

قال الراغب: «الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، ومنه قيل: (ركية بديع) أي جديدة الحفر. وإذا استعمل في الله فهو إيجاد الشيء بغير آلةٍ ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله »(١).

والبديع يقال للمبدع نحو قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧].

ويقال للمبدع (ركية بديع) وكذلك (البدع) يقال جميعًا بمعنى الفاعل والمفعول.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [الأحقاف:٩].

والعجب من قول الراغب: إذا استعمل في الله تعالى كان معناه إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان وليس ذلك إلا لله.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾ [النحل:٤٠]، فكيف يتصور الإيجاد من غير مادة ولا زمان ولا مكان مع أن هذه الثلاثة لازمة للخلق، فإن كل مخلوق لا بد له من مادة سابقة عليه.

(١) المفردات ص ١١٠ .

لابد أن يكـون وجوده مبتدأ من لحـظة معينة في الـزمان، ولابد أن يكون وجوده كذلك في حيز ومكان .

ولعل مما يشهد قـوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[فصلت:١١] ، فإنهـا تدل على أن السماء كانت عند استوائه سبحانه إليها وقصده إلىٰ خلقها كانت دخانًا.

وقـوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾[الرحمن:١٤،١٥] .

وقـد روىٰ مسلـم في صحيحه: (خلق الله الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[(١)].

والحاصل أن اسمه تعالىٰ (البديع) دال علىٰ أنه مخترع الأشياء من غير أن يستعين في ذلك بخالق إذ لا خالق غيره سبحانه وهو الذى يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه.

ولـم يرد هذا الاسم الكريم في القرآن الكريـم إلا مرتين:

إحـداهمـا: قـوله تعـالـىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[البقرة:١١٦،١١٧].

والثـانية: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[الأنعام:١٠١].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

وأما اسمه تعالىٰ (الهادي) فهو اسم فاعل من الهدىٰ الذي هو مقابل الضلال.

ومعناه كما قال (ابن الأثير): هو الذي بصر عباده، وعرفهم طريق معرفته حتىٰ أقروا بربوبيته، وهدىٰ كل مخلوق إلىٰ ما لابد له منه في بقائه ودوام وجوده.

وقد ورد هذا الاسم كثيرًا في القرآن أحيانًا بلفظه كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

وأحيانًا بصيغ الفعل المنصرفة منه كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ [طه:٥٠].

وكقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾ [الأعلىٰ: ٢،٣]، وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

وقوله تعالىٰ في شأن تحويل القبلة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [البقرة: ١٤٢]، إلىٰ غير ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصر في نسبة الهداية والضلال إلىٰ الله عز وجل.

ولكن ينبغي أن يعلم أن الهداية المختصة بالله جل شأنه هي خلقه الهدىٰ والضلال في قلب العبد؛ ولهذا نفاها الله عن نبيه ﷺ حيث قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

وأما الهداية بمعنى البيان والدلالة والإفهام فقد يوصف بها الرسول ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويوصف بها القرآن العظيم، كما في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: (**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**)(١).

وفي الدعاء الآخر: (**اللهم إني أسألك التقى والهدى والعفاف والغنى**)(٢).

قال الراغب في (المفردات) ما ملخصه(٣): وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) المفردات ص ٨٣٥ – ٨٣٦ .

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو مقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ [الأنبياء:٧٣].

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعني بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧].

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن:١١].

وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ﴾ [يونس:٩].

وقوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت:٦٩].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد:٥،٦].

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف:٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله .

والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطرق ، دون سائر أنواع الهدايات.

وإلى الأول أشار بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[الأنبياء: ٧٣] .

وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾[الرعد: ٧].

وهي التوفيق الذي يختص به المهتدين، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة نحو قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦].

وكقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[النحل: ١٠٧].

وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر وذكر أنهم غير قادرين عليها، فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطرق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة، كقوله عز ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٧٢].

﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾[النمل:٨١]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾[الزمر:٣٦،٣٧]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦].

وهكذا أطال الراغب وأجاد في ذكر أنواع الهداية وبيان ما هو مختص بالله جل شأنه وما هو مشترك بينه وبين غيره، إلا أنه لم يذكر الهداية العامة التي هدى الله بها كل مخلوق إلى القيام بالوظيفة التي هيأه لها بما منحه من الغرائز والقوى والآلات التي يحتاجها.

ولعل هذا النوع من الهداية الذي يرجع إلى الإلهام والتسخير هو المقصود في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ [طه:٥٠].

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾[الأعلى:٢،٣].

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾

[النحل:٦٨،٦٩].

(الرشيد والصبور): ومن أسمائه الحسنى سبحانه (الرشيد والصبور): ولم يجئ واحد منهما في القرآن الكريم وصفًا لله عز وجل بلفظه، ولكن ورد كل منها وصفًا لبعض عباده كقول لوط - عليه السلام - لقومه وهو يجادلهم في شأن ضيفه ويحذرهم من التعرض لهم بسوء: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود:٧٨].

وكقول قوم شعيب عليه السلام له حين دعاهم إلى الله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان:٣١].

أما الرشيد فهو مشتق من الرشد الذي هو ضد الغي، ومعناه الذي لا يقول ولا يفعل إلا ما كان صوابًا.

فقوله سبحانه وفعله كله رشد وفي أعلى الغايات من الاستقامة والسداد، لا يمكن أن يداخله شيء من الضلال أو الانحراف. فكلماته وأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور، كلها حق ورشد لاشتمالها على الحكم والمصالح والغايات الحميدة، وعلى تمام الحسن، ونهاية الإتقان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الانبياء:١٦].

وقال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج:٣٩].

وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل:٨٨].

وقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة:٧].

وأقواله وكلماته الشرعية الدينية وهي التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله رشد كلها، فإنها مشتملة على الصدق التام في الإخبار، والعدل التام في الأحكام، فلا أحد أصدق من الله قيلا، ولا أحسن منه حديثًا.

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام:١١٥].

فهذه الكلمات من أعظم وأجل ما يرشد به العباد، بل لا يحصل لأحد الرشاد بغيرها أصلاً، فمن ابتغى الهدى في غيرها أضله الله، ومن لم يسترشد بها في جميع أمره فليس هو برشيد. إذ يحصل بها الرشد العلمي، وهو معرفة الحقائق التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من طريق الوحي، والوقوف على المصالح والمضار الدينية والدنيوية ويحصل بها كذلك الرشد العملي، فإنها تزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتدعو إلى

أصلح الأحـوال، وأحسن الأخلاق، وتـرغب في كل جمـيل، وترهب من كل ذميم رذيل.

وبـالجملـة فإن الله سـبحانه لـم يجعل لأحد علـيه حجة بعـد بعثته للرسل وإنـزاله الكتب المـشتملـة علىٰ الهـدىٰ والإرشاد الكـامل. فهو سبحانه الرشـيد الذي كم بفضله هدىٰ ضالاً وأرشد حائرًا، وخصوصًا من تعلق به، وطلب الهدىٰ منه من صميم قلبه، وعلم أنه المنفرد بالهداية.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في القصيدة النونية[1]:

وهو الرشيد فقوله وفعـاله ... رشد وربك مرشـد الحيران

وكلاهما حق فهذا وصـفه ... والفعل للإرشاد ذاك الثاني

وأما اسمه تعـالىٰ (الصـبور) فإنه مـبالغة مـن صابر، ومعـناه: الكثير الـصبر. والـصبر فـي الأصل حبـس النفـس علـىٰ مـا تكـره من الآلام والمشقات انتظارًا لحسن العاقبة، ونفي الهلع والجزع عنها.

والصبر في حقه – سـبحانه – معنـىٰ يليق بذاته إذ لا يـبلغ أحد من العباد صبره . والمراد به حلـمه – سبحانه وتعالىٰ – علىٰ أعدائه، ومتابعة نعمه عليهم، وعـدم معالجتهم بالعقوبة مع إيذائهم إياه بتكذيبه ومعاندة رسله، قال ﷺ في الحـديث الصحيح: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم)[2].

(١) شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٣٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

وثبت في الصحيح - أيضًا - قال تعالى: (كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، أما شتمه إياي فقوله إن لي ولدًا، وأنا الواحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد)[1].

فالله تعالى يدرُّ على عباده الأرزاق، المطيع منهم والعاصي، والعصاة لا يزالون في محاربته وتكذيبه وتكذيب رسله والسعي في إطفاء دينه . والله تعالى حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون في الشرور وهو يتابع عليهم النعم، فلا أحد أكمل صبرًا من الله عز وجل؛ لأنه صبر عن كمال قدرة، وكمال غنى عن الخلق، وكمال رحمة وإحسان، فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، الصبور الذي يحب الصابرين ويعينهم في كل أمورهم ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠].

**

(**الواجد**): ومن أسمائه الحسنى سبحانه: (الواجد) وهو من الوجد بضم الواو، بمعنى الغنى والسعة كما في قوله تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ [الطلاق:٦]، أي مما وجدتموه وقدرتم عليه.

ولم يذكر هذا الاسم في القرآن بلفظه ولكن مرادفه وهو (الغنى) قد ذكر كثيرًا في القرآن فإن الاسمين بمعنى واحد أو هما على الأقل

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٣).

متقاربان، فلا يتحقق الغنىٰ إلا مع وجود الشيء وتملكه . وأما فقده فهو الفقر أو العدم، فالغنىٰ يقابله العدم.

ومعنىٰ كونه تعالىٰ (واجدًا) أن كل أسباب الغنىٰ حاصلة له، فهو لا يفتقر إلىٰ شيء أصلاً، لا في وجوده، ولا فيما يجب له من صفات الكمال، فكلها حاصلة علىٰ أكمل وجه وأتمه من غير أن يفتقر في حصولها إلىٰ أحد . فإن غناه وصف ذاتي له، لا ينفك عنه لحظة، فلا يتصور في حقه فقر ولا حاجة، كما أن فقر الأشياء كلها إليه فقر ذاتي، لا ينفك عنها لحظة، فلا يتصور لها استغناء عنه أبدًا، لا في ابتداء وجودها، ولا في دوام وجودها، ولا فيما يمدها به من أسباب الترقي والكمال.

وإطلاق هذا الاسم علىٰ الله عز وجل خير من إطلاق هذا الاسم المحدث الذي يطلقه عليه علماء الكلام وهو قولهم (موجود) فإن الواجد كما قلنا أفاد استغناءه في وجوده وفي جميع كمالاته عن غيره بخلاف الموجود فإنه يدل علىٰ ذلك . إذ من الموجودات ما هو ممكن محتاج في وجوده إلىٰ غيره . ولهذا يحتاج هؤلاء إلىٰ أن يقولوا: «موجود واجب الوجود ».

ولا شك أن لفظ الوجد علىٰ اختصاره أفاد هذا المعنىٰ وزيادة، فضلاً عما امتاز به مجيئه علىٰ اسم الفاعل دون اسم المفعول.

وحينئذ فلا يجوز أن يعدل عن ألفاظ الشرع إلىٰ تلك الألفاظ المحدثة المبتدعة . فإن ألفاظ النصوص فيها من الدقة والعمق والدلالة علىٰ المعنىٰ المقصود ما لا يمكن أن يتوفر في الشرع وألفاظ أهل البدعة.

فنقول: لقد سمى الله عز وجل نفسه في كتابه (الأول) فوضع المتكلمون بدلاً عنه القديم، وأنت إذا تأملت هذا اللفظ وجدته مع استهجانه في النطق لا يدل على المعنى المطلوب، وهو تقدمه تعالى على كل شيء، فإنه موضوع لكل ما تقدم بالزمان على غيره سواء كان تقدمًا مطلقًا أو نسبيًا، ولهذا توصف به بعض الحادثات باعتبار تقدمها على غيرها مما يسمى جديدًا بالنسبة لها؛ كقول أبناء يعقوب عليه السلام له: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف:٩٥].

وكقوله تعالى من سورة يس: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس:٣٩].

وكقول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦﴾ [الشعراء:٧٥،٧٦].

وكقول الفقهاء: قال الشافعي في المذهب القديم كذا، وقال في الجديد كذا.

وأما لفظ (الأول) فإنه مع حلاوة جرسه يدل على سبقه سبحانه وتعالى للأشياء كلها بحيث لا يكون شيء منها سابقًا عليه، ولا مقارنًا له؛ ولهذا فسره الرسول ﷺ بقوله: (**أنت الأول فليس قبلك شيء**)[١].

كما يدل على أن الأشياء كلها آيلة ومستندة إليه؛ فإن الأول مأخوذ

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

من الأول، وهو الرجوع والانتهاء، فهو مبدأ كل موجود، ونهاية كل مقصود.

**

(الماجد والمجيد): ومن أسماء الله الحسنى كذلك (الماجد والمجيد) وهما من المجد الذي هو الشرف والسعة وكثرة الخير، فهو إلى كثرة الصفات الوجودية وسعتها وبلوغها غاية الكمال والعظمة، كما يدل على عظيم فضله وإحسانه وبره وجوده.

وقد ورد في القرآن اسمه تعالى (المجيد) قال تعالى على لسان الرسل الذين جاءوا إلى إبراهيم للبشارة بإسحاق: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝﴾ [البروج:١٤، ١٥].

فقد قرئ المجيد بالرفع على أنه اسم لله، كما قرئ بالجر على أنه صفة للعرش، والقراءة الأولى أولى وأصح[١].

وقد ورد في الصحيح أنه ﷺ كان يقول أحيانًا عند الرفع من الركوع: (اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد)[٢].

(١) انظر: الحجة في القراءات السبع ص ٣٦٧.

(٢) رواه مسلم (٤٧٧).

ويقول أمية بن أبي الصلت في بعض شعره في التوحيد:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسىٰ كبيرًا
بالبناء الأعلىٰ الذي بهر النا وسوىٰ فوق السماء سريرًا
شرجعًا[(١)] ما يناله بصر العين ترىٰ حوله الملائك صورًا[(٢)]

وكثيرًا ما يجمع بين اسمه تعالىٰ (الحميد) وبين اسمه (المجيد) كما في الآية السابقة، وكما في قولنا في التشهد عند الصلاة علىٰ النبي ﷺ: (إنك حميد مجيد)[(٣)].

والحكمة في هذا الاقتران أن الحمد دال علىٰ كمال الأفعال، والمجد دال علىٰ كمال الصفات؛ فمن جمع بينهما فقد أثبت لله الكمال كله في صفته وفعله.

**

وإذا كانت أسماؤه عز وجل وما تتضمنه من معان ومدلولات مما لا يفي به الحصر، ولا يمكن أن يتسع له جهد بشر، فإني أكتفي بهذا القدر الذي قدمته في التعليق علىٰ ما تقدم من الأسماء الحسنىٰ التي تعتبر كالأصول لما دونها.

****

---

(١) الشرجع: العالي البعيد.

(٢) الصور: جمع أصور، وهو المائل العنق.

(٣) رواه البخاري (٤٧٩٧، ٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

قواعد هامة في باب الصفات

وأذكر هنا جملة من القواعد الهامة التي تجب مراعاتها في باب الصفات عامة، وهي قواعد تعصم المتمسك بها من الزيغ والانحراف في هذا الباب الذي ضل فيه كثير من الطوائف لعدم اتباعهم للنصوص من الكتاب والسُّنة، وتعويلهم على ما يسمونه عقلية أو مكاشفات صوفية أو غير ذلك مما ابتدعه الناس بأهوائهم فأضلهم عن المنهج الصحيح في هذا الباب، بل وفي كل ما أخبر عنه الشرع من الغيوب التي لا مجال للعقول في بحثها والتفتيش عنها. ووظيفتها فقط أن تؤمن بصدق الخبر عنها، ولا تجعله من مجالات العقول، ثم تمسك عما وراء ذلك من حقائق هذه الأخبار وكيفياتها.

وإليك أيها القارئ بعض هذه القواعد، فاحفظها وتفهمها لتكون من المهتدين على بصيرة:

أولاً: ليس كل ما يجوز الإخبار به عنه سبحانه يكون أوسع مما يدخل في باب الأسماء والصفات، وذلك مثل:

الشيء والموجود والقائم بنفسه، وغيرها من الألفاظ التي تتضمن معاني صحيحة، ولكن لم يرد الشرع بتسميته سبحانه بها، فهي إخبار عنه وليست أسماء.

ثانيًا: إن الصفة إذا كان إطلاقها محتملاً للكمال والنقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه بل لا يطلق عليه منها إلا ما كان كمالا، وذلك مثل: المريد، والفاعل، والصانع، فلا يجوز أن يسمى في حال الإطلاق، بل لا بد من تقييدها بما يجعلها متمحضة للكمال كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، وكقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ثالثًا: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، فلا يجوز مثلاً أن يسمى ماكرًا لأنه قال: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤].

ولا فاتنًا لأنه قال: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:١٣١] .

ولا كائدًا ولا مضلاً ولا مستهزئًا أخذًا من الآيات التي نسبت إليه ذلك فعلاً .

فهذه كلها من باب الإخبار لا الأسماء.

رابعًا: إن الاسم إذا أطلق عليه سبحانه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، وأن يقع كل منهما خبرًا، وذلك مثل: السميع، البصير، القدير، فيقال هو ذو سمع وبصر وقدرة، كما قال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وكما قال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣].

خامسًا: إن أسماءه سبحانه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً . وإذا كان هناك من الأسماء ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو

الخالق والرازق والمحيي والمميت، فهي تدل على أن أفعاله كلها خير محض لا يدخلها الشر بوجه، إذ لو فعل الشر لجاز أن يشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى . فالشر لا يضاف إليه سبحانه، لا فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته التي هي مخلوقة منفصلة عنه.

سادسًا: إن كل ما يطلق عليه وعلى غيره من الأسماء والصفات له ثلاث اعتبارات؛ لأنه إما أن يؤخذ من حيث هو بقطع النظر عن تقيده بالرب تبارك وتعالى أو بالعبد.

وإما أن يؤخذ مضافًا إلى الرب مختصًا به. وإما أن يؤخذ مضافًا إلى العبد مقيدًا به .

فما أخذ مضافًا إلى العبد فهو صفته التي يتنزه عنها الخالق . وما أخذ مطلقًا غير ثابت للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به . وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم، القدير، وسائر الأسماء؛ فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما يلزمه هذه الأسماء لذاتها عند الإطلاق فإثباته للرب جل شأنه لا محذور فيه بوجه، ولكن تثبت له على وجه لا يماثله فيه خلقه، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد في صفات كماله . ومن أثبته على وجه يماثل فيه خلقه به فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه، فقد كفر.

وأما من أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برئ من التعطيل والتشبيه جميعًا . وهذا هو طريق أهل السُّنة الوسط بين الفريقين.

سابعًا: إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله تعالى من الأسماء والصفات ما استأثر هو بعلمه، فلا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: (أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك)[1].

وكما في قوله عليه السلام: (سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[2].

ثامنًا: إن من أسمائه الحسنى ما يكون دالا على عدة صفات بحيث يكون متناولاً لجميعها تناول الاسم الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه .... الخ . ثم قال: هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء سبحانه الله الواحد القهار.

تاسعًا: إن الإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد

---

(١) أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

حقيقة لأنهم عدلوا بأسمائه إلىٰ أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق به، كتسمية النصارىٰ له أبا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، أو نحو ذلك.

ثالثها: وصفه بما يتعالىٰ عنه ويتقدس من النقائص، كقول اليهود قبحهم الله: إنه فقير، وأنه استراح يوم السبت بعد أن فرغ من الخلق، وقولهم: يد الله مغلولة.

رابعًا: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية، إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، وأنها أسماء مترادفة مدلولها هو نفس الذات، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة.

وهذا من أعظم الإلحاد في أسمائه، فإن كل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالىٰ الله عما يقوله هؤلاء المشبهة . وإلحاد هؤلاء يقابله المعطلة؛ فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه . فجمعهم الإلحاد وإن تفرقت بهم سبله.

وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ومعنىٰ، بل أثبتوا له الأسماء

والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وكان تنزيههم خليًا من التعطيل، والله يهدي من يشاء إلىٰ سواء السبيل.

سبق أن ذكرنا أن صفاته عز وجل تنقسم إلىٰ صفات ذاتية لازمة لذاته لا تنفك عنها ولا تكون تابعة لمشيئته تعالىٰ وقدرته: مثل علمه وحياته وعظمته وكبريائه ومجده وجلاله.

وإلىٰ صفات فعلية لا تكون لازمة للذات وأبدًا بل تحدث في ذاته بقدرته تبعًا لمشيئته تعالىٰ وحكمته، وذلك مثل محبته ورحمته ورضاه وغضبه وعفوه وانتقامه، ومثل صفات الخلق والرزق والإعطاء والإحياء والإماتة والإشقاء والإسعاد والإضلال والهداية ... الخ.

وقد اختلف الناس في صفات الأفعال هذه اختلافًا كبيرًا ليس سببه أبدًا اشتباهًا في النصوص ولا غموضًا في الإفهام والدلالة؛ فإن النصوص في هذا الباب صريحة كل الصراحة لا تلتوي إلا علىٰ ذوي الأفهام المدخولة والبصائر التي تدنست بأرجاس الكلام الباطل والفلسفات الوثنية الجائرة فعميت عليها السبل ولم تهتد إلىٰ الحق الصريح من كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

لقد اتفق المتكلمون من معتزلة وأشعرية علىٰ نفي صفات الأفعال فليس لله عندهم فعل يكون صفة له قائمة به، فخلقه تعالىٰ للأشياء لا يستلزم أن تقوم به صفة هي الخلق، ورزقه للعباد لا يستلزم به الرزق، وهكذا في كل صفات الأفعال.

وحجتهم في ذلك أن هذه الأفعال إذا وجت لا تكون إلا حادثه، وبناء على ما أسسوه من قواعد الكلام الباطل يمتنع عندهم قيام الحادث بالقديم، فلا يتجدد عندهم في ذاته شيء، ولا يحدث له معنى لم يكن، بل هو الآن على ما عليه كان، وسلطوا النفي والتأويل على كل ما تضمنته نصوص الكتاب والسُّنة من صفات الأفعال، وأرجعوها إلى تعلقات و إضافات لصفتي القدرة والإرادة

فهو عندهم لم يزل متكلمًا بكلام هو معنى قائم بذاته ليس بحرف ولا صوت، ولم يزل محبًا لمن علم أنه يموت مؤمنًا ولم يزل ساخطًا على من علم أنه يموت كافرًا.

ولا معنى لمحبته إلا إرادة الثواب، ولا لكراهيته إلا إرادة العقاب، ولا لرحمته إلا إرادة النفع والإحسان إلى عباده، إلى غير ذلك مما امتلأت به كتبهم، ولا سيما طائفة الأشعرية الذين يزعمون أنهم أهل السُّنة والجماعة.

وإني أضع بين يديك أيها الأخ الكريم طائفة من نصوص الكتاب والسُّنة التي تثبت لله عز وجل الصفات الاختيارية والتي تشهد على هؤلاء المتكلمين بالزيغ والانحراف ومجانية الحق في هذا الباب كما فعلوا بالنسبة للصفات الخبرية التي ورد بها النقل الصحيح كالوجه واليد والعين والاستواء والنزول لتعلم أن القوم إنما يتبعون أهواءهم، وأنهم لا يرجعون في شيء من عقائدهم إلا ما أسسه لهم أسلافهم في الضلال من الزنادقة والمتفلسفة، وأن آراءهم لا تمثل العقيدة الإسلامية لا من قريب

ولا من بعيد، وأن الحق في هذا الباب لايمكن أن يعدو الكتاب والسُّنة، وأن الواجب الاعتصام بهما وحدهما في هذه المزالق الخطرة، وأن من قال في الله بغيرهما فقد افترىٰ على الله الكذب، وقال عليه ما لا يعلم، وجادل في الله بغير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير وإليك الآيات والأحاديث بغير تعليق إذ هي أوضح من كل تعليق:

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:١٤٤]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران:٢٩]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٠،١٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ ﴾ [آل عمران١٨١].

وقال الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

وقال سبحانه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة:٤١]، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة:٨٠].

وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة:١٠٩-١١٠].

وقال جل شأنه: ﴿يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الاعراف:١٥٢]، ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف:١٥٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:١٦]، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الانفال:٢٩]، ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الانفال:٢٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ

إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنفال:٧٠].

وعدنا فيما سبق أن نذكر بقية الآيات والأحاديث الدالة على ما اتصف به سبحانه من صفات الأفعال الاختيارية المتعلقة وقدرته والتي نفاها علماء الكلام الباطل من المعتزلة والأشعرية بناء على أصلهم الفاسد في امتناع قيام الحوادث بذاته، والتزموا من أجل ذلك تأويل ما لا يحصى من نصوص الكتاب والسُّنة، ونحن نفي إن شاء الله بما وعدنا به، ونذكر بقية الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، ثم نتبعها بما صح من أحاديث رسول الله ﷺ.

يقول الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

[الأنفال:٧،٨].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال:١١،١٢].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠].

ويقول سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

ويقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة:١٦].

ويقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦].

ويقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة:١٠٤-١٠٨].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ

فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝﴾ [يونس:٣،٤].

ويقول منها كذلك: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝﴾ [يونس:٣١-٣٥].

ويقول جل شأنه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [هود:٣٤].

ويقول ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [يوسف:٦].

ويقول من نفس السورة: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ

نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦].

ويقول: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:٨-١١]، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد:٣٨،٣٩]، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ويقول سبحانه: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النحل:٢٢،٢٣]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ [النحل: ١٠٤-١٠٨].

ويقول جل شأنه: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

ويقول من نفس السورة: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥١، ٥٣].

ويقول جل وعلا: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه: ٩-١٣].

ويقول من نفس السورة: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى

وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٣٩-٤٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء:١٠،١١].

ويقول من نفس السورة: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

ويقول: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل:٥٠].

ويقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص:٥].

ويقول من نفس السورة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص:٤٦] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص:٦٥].

ويقول: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:١-٣].

ويقول في آخر السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

ويقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد:٤-٦].

ويقول: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

ويقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات:٧، ٨].

ويقول: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١].

وكتبه

الدكتور/ محمد خليل هراس

رحمه الله وغفر له، آمين

❁❁❁

أولاً: فهرس أطراف الآيات القرآنية

ثانيًا: فهرس أطراف الأحاديث

الحديث — الصفحة

*** ** ***

المحتويات

الموضوع الصفحة